المركز القومى للترجمة

لون البشرة

وأثره فى العلاقات الإنسانية

تأليف: ر. د. ج. سيمونز

ترجمة: على عزت الأنصارى

مراجعة: عبد العزيز كامل

ميراث الترجمة



1326



يتناول هذا الكتاب بحث إحدى خصائص لون البشرة الآدمية، التى لم يقدر أهميتها إلا قليل من الناس، ونعنى بها تقسيم البشر على أساس اللون. من أجل ذلك كان للون أهمية كبرى فى العلاقات البشرية، التى نشأت عنها المسألة العنصرية. وهكذا كان ما فى اللون البشرى من فتنة سبباً فى كثير من المتاعب بسبب سوء الفهم أو سوء التصرف.

هذا ولو أن الكاتب لا يدعى أنه أنصف هذه النعمة الطبيعية كل الإنصاف، إلا إنه يرجو أن يكون قد أسهم فى وضعها فى مكانها الصحيح.

لـون الـبـشـرة

وأثـره فـى الـعـلاقـات الإنـسـانـيـة

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣٢٦
- لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية
- ر. د. ج. سيمونز
- على عزت الأنصارى
- عبدالعزيز كامل
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

The Colour of the Skin in Human Relations

by R. D. G. Simons

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

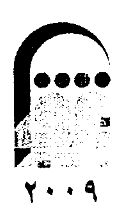
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

لون البشرة
وأثره فى العلاقات الإنسانية

تأليف : ر. د. ج سيمـــــونـــز

ترجمة : علـى عـــزت الأنصــارى

مراجعة :عـبـد العـزيـز كامـــــل



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سيمونز، ر.د.ج

لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية

تأليف : ر.د.ج سيمونز، ترجمة: على عزت الأنصارى،

مراجعة : عبد العزيز كامل

القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩

١٤٤ص، ٢٤ سم

١ - العلاقات الإنسانية

(أ) الأنصارى، على عزت (مترجم)

(ب) كامل، عبد العزيز (مراجع)

(جـ) العنوان ١٥٨,٢

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٧٥٠٠

الترقيم الدولى 978-977-479-129-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم	7
مقدمة المؤلف	10
الفصل الأول : أهمية اللون من الناحية الاجتماعية	11
الفصل الثانى : الجانب الجغرافى للحاجز اللونى	37
الفصل الثالث : الكنيسة والمسألة العنصرية	59
الفصل الرابع : متاعب الجماعة الوسطى	83
الفصل الخامس : أعظم بوتقة لصهر البشر	113
الفصل السادس : خاتمة	127
المراجع	133

تقديم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

«سورة الروم:٢٢»

من خصائص القرآن الكريم أنه كلما ذكر فيه شىء على أنه من آيات الله جاء هذا مصحوبا بما يحض على البحث والتفكر فى الظاهرة التى تضمنها النص. وفى هذه الآية التى صدرنا بها هذا الكلام ذكر خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان على أنها من آيات الله وتؤكد فى ختامها أهمية هذه الآيات التى يقدرها العلماء حق قدرها.

وقد قام الدكتور "سيمونز" بنصيب طيب فى بيان الدور الذى يؤديه اللون فى العلاقات البشرية ببحث هذا الموضوع ونشر نتيجة هذا البحث فى كتاب مطبوع وقد عالج فيه دور لون البشرة فى تقسيم الجنس البشرى إلى مجموعات وهو ما يعرف عادة بالمسألة العنصرية.

وكانت دراسة الدكتور "سيمونز" واسعة الأفق وتناولت كل جوانب المسألة. ولو أن اهتمامه ببحث المسألة فى أول الأمر يرجع إلى اشتغاله بالأمراض الجلدية وعلاجها إلا أنه كشف جميع جوانب الموضوع النفسية والسكانية والاجتماعية حتى الدينية.

وكانت دراسته لهذا الموضوع فى الوقت الذى هبت فيه أفريقية كلها فى الشمال والجنوب والشرق والغرب وظهرت فيه فورتها فى كل جوانب العلاقات البشرية التى لابد من وجود جانب الاختلاف العنصرى وجانب اللون فى كل منها. وقد اطلع على

عدة آراء وكثير من البحوث فى هذا الموضوع وكانت لجهوده قيمة كبرى لدى من يهمهم حسن التفاهم وتوكيد الصلات الطيبة بين الجماعات العديدة فى الجنس البشرى .

إن كل يوم يمر يؤكد لنا عظيم الحاجة إلى دراسة هذه المسألة وتنفيذ ما تمليه هذه الدراسة من تغيير الأوضاع العقلية والخلقية والدينية فضلا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية إذا أريد للجنس البشرى أن يسير قدما إلى الأمام وأن يبلغ الهدف الذى خلق من أجله.

أما عن نصيب الديانات فى حل مسألة اللون فموقف الإسلام منها واضح وبسيط[1] قال تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ «سورة الحجرات: ١٣»

وهكذا قرر الإسلام فى وضوح أن الانقسام إلى هذه الفرق العديدة من شعوب وقبائل ذو غرض مفيد فى المجال الاجتماعى ولكنه لا يجعل لقسم ميزة على سائر الأقسام ولا يبرر التفرقة بينهم ولا يبلغ الشرف الرفيع منهم إلا من سار على الصراط المستقيم .

والحق أن المسلمين لم يلتزموا دائما ذلك المستوى السامى من التفكير ولكن الحق أيضًا أنهم كانوا فى جميع العهود التاريخية أقل الناس اهتماما بلون البشرة، ولهذا لم تنشأ بينهم تلك المشكلات أو الصعاب التى كان الناس يلاقونها فى هذا الميدان ولم يكن لها من أثر بينهم.

وما العمل ؟.. يرى الدكتور "سيمونز" أن الصداقة أفضل الحلول - تلك الصداقة المؤسسة على المساواة مع حرية الاختيار احتراما للشخصية الإنسانية وضمانا للإبقاء عليها. ويجب أن نذكر أنه متى تغلغلت روح الصداقة بين الجماعات الإنسانية المختلفة

(١) إن الإسلام لا يفاضل بين الناس على أساس اللون.

سيكون الطريق معبدا لحل كثير من الخلافات الاجتماعية وما تشمله من خلافات الأجناس. إن الصداقة الحقيقية لا تنشأ إلا عن تفاهم عميق وشعور طيب بين الصديقين. وهي لا تقتضى المساواة فحسب، بل تتضح بجلاء فى مستوى المساواة التامة – ذلك المستوى الذى لا ينظر إلى لون الإنسان إلا كما ينظر إلى الثوب الذى يلبسه.

والموقف الذى يواجهه الجنس البشرى اليوم فى حاجة إلى مزيد من الدراسة ونحن نأمل أن يجد الدكتور "سيمونز" ما يحمله على زيادة البحث والدرس فوق ما وصل إليه فى هذا الكتاب. واعتقادى أن حل جميع المسائل التى نشأت عن اختلاف ألوان الناس لن يكون إلا بأن ندرك تمام الإدراك العلاقة القائمة بين كل إنسان وسائر الناس تلك التى أنشأها فينا الحكيم العليم الخلاق.

قال تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾

«سورة آل عمران:١٠٣»

والحق أن البشر واقفون على شفا حفرة من النار ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالاعتصام بحبل الله الذى يؤلف بين الناس جميعا واتحاد الجميع بعضهم مع بعض مع إدراك أن الناس جميعهم هم خلقه الذى خلق وماخلقوا إلا لغاية وهذه الغاية لا يمكن أن نصل إليها إلا إذا اتحدت القلوب على الحب المتبادل بين الناس .

لاهاى – ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦٠

دكتور سير محمد ظفر الله خان

نائب رئيس محكمة العدل الدولية

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب بحث إحدى خصائص لون البشرة الآدمية التى لم يقدر أهميتها إلا قليل من الناس، ونعنى بها تقسيم البشر على أساس اللون. من أجل ذلك كان للون البشرة أهمية كبرى فى العلاقات البشرية التى نشأت عنها المسألة العنصرية. وهكذا كان ما فى اللون البشرى من فتنة سببا فى كثير من المتاعب بسبب سوء الفهم أو سوء التصرف.

هذا ولو أن الكاتب لا يدعى أنه أنصف هذه النعمة الطبيعية كل الإنصاف فهو يرجو أن يكون قد أسهم فى وضعها فى مكانها الصحيح.

ويزجى المؤلف شكره للسير محمد ظفر الله خان للمقدمة الشائقة التى قدم بها لهذا الكتاب.

(ر . س.)

الفصل الأول

أهمية اللون من الناحية الاجتماعية

إن العلم الذى يعنى بوظائف البشرة وخصائصها والتى يبلغ المتخصصون فى دراسته حوالى ثلاثة آلاف عالم فى جميع أنحاء الدنيا، لم يعالج وظفية من أهم وظائفها وهى تصنيف الجنس البشرى فى جماعات، ولربما كان ذلك راجعا إلى ما يقال من أن هذا الميل إلى التصنيف ليس من طبع الإنسان، وأن تقسيم الجنس البشرى حسب لون البشرة ليس من صنع الخالق. ومع ذلك «فاختلاف اللون» عن لونك أيها القارئ العزيز وعن أى لون آخر هو المشكلة التى حيرت آلاف الناس آلاف السنين.

وفى كل محاولة لتقسيم الناس حسب جنسهم كان للون بشرتهم الأهمية الأولى بل الأساسية فى التقسيم حتى إذا انقلب هذا التقسيم إلى شىء من الترتيب يجعل أحد الأجناس أسمى من الآخر ويتخذ من هذه الظاهرة الجلدية الطبيعية التى دعت إلى التجمع وسيلة إلى الغض من أقدار الناس. بذلت الجهود للقضاء على الخلافات بمحو لفظ «الجنس» ومحو المسألة العنصرية إذا كان ذلك من الامكان.

ومن رأى بعض الكتاب أنه يجب محو مدلول لفظ «الجنس» وأن تمحى معه المسألة العنصرية ويستعمل فى هذا المجال أسس أخرى للتقسيم كحجم الجمجمة مثلا (بلومنباخ سرجى Blumenbach, Sergi) ولو أن هذا سينبنى عليه وضع الزنوج والإسكندنافيين فى جنس واحد. ويرى آخرون أن يستبدل بلفظ «الجنس» لفظ آخر «كالجماعة العنصرية» Ethnic Group وبالرغم من نبل المقاصد فما زالت توجد الظروف العنصرية التى لا يمكن علاجها من الناحية الأنثروبولوجية وحدها، لأنها

أيضًا مسألة اجتماعية تؤثر فى الجماعات والطبقات وتقوم على تقسيم الناس حسب ألوان بشرتهم[١].

وهذه المسألة التى أسمتها اليونسكو سنة ١٩٥٠ الخرافة الاجتماعية Sociological Myth ذات أهمية بالغة لأنها تثير السؤال الفاصل الذى طالما وجه إلى المختصين فى علم الإنسان : أى العناصر هو الأسمى وأى العناصر هو الأدنى .. أم أيها كان كذلك فى عصور ما قبل التاريخ.. ؟ وهذه المسألة لابد أن تبدأ بتعريف واضح لها لأن كل كاتب – كما دل عليه بحث اليونسكو فى العنصرية – فسرها تفسيرا مخالفا لتفسير غيره من الكتاب. ويتعمق بيتار Pittard فى كتابه (الأجناس والتاريخ) إلى لب المسألة فيقول «إنى أستعمل لفظ الجنس بالمدلول الشائع – دون أية مناقشة بيزنطية – الجنس جماعة من الناس متشابهون انحدروا من آباء من دم واحد. بهذا المدلول سأستعمل لفظ «الجنس» فى هذا الكتاب.

الأساس التاريخى

ومع أن التفرقة العنصرية والجماعية قد وجدتا دون شك منذ أقدم العصور – كما سنرى فيما بعد – فإن المشكلة تبلورت ثانية بعد انتصار "فرديناند" و"إيزابيلا" على أهل المغرب وكشف البيض أراضى جديدة وأسسوا المستعمرات. ومن سوء الحظ أنهم ارتكبوا خطأ سيحاسب عليه ذراريهم عدة قرون متعاقبة. وعندما استعبدوا أهالى البلاد عدوا أنفسهم متفوقين عليهم لا فى القوة وحدها بل فى لون بشرتهم كذلك. وكان العالم منقسما إلى الجنس الأبيض والأسود والأصفر[٢] ومن لم ينتظمه أحد هذه

(١) ولم يدخل فى هذا التصنيف أى عامل آخر كشكل الجمجمة أو الأنف أو الوجه أو الشعر المجعد .

(٢) لم يكن ذوو اللون الأحمر معروفين عندئذ فضلا عن أن تسميتهم بهذا الاسم كانت ترجع إلى لون بعض الأصباغ التى كانوا يصبغون بها بشرتهم للوقاية من الأرواح الشريرة أو الأمراض وكانوا يصبغون حيواناتهم كذلك باللون الأحمر ولم تكن صباغة الجلد مقصورة على الهنود الحمر. هذا ولفظ فينيقى Phoenician معناه الجلد الأحمر وكان البكت يسمون بهذا الاسم لصبغتهم بشرتهم باللون الأحمر. والروس وشعر رءوسهم فى لون الصدأ Rust كانوا يسمون "الرستيان" Rustian كما أن لفظ "باتولى" Batuli المستعمل فى شمال نيجيريا للدلالة على الرجل الأبيض يعنى أيضا ذا الجلد الأحمر

الأقسام وضع فى قسم آخر حسب الأهواء السياسية وحسب القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن أحد أبناء نوح وأحد حكماء المشرق كان لونهما أسود[1] فان الكنيسة أسهمت بنصيب يؤسف له فى ذلك الحين إذ أصدرت مرسوما بابويا عام ١٤٥٥ يقرر سيادة النصارى على الكفار. وهذا الإجراء قد أقر فى الواقع استرقاق الزنوج والهنود الحمر، وأدهى من ذلك أثار موجهة جديدة من الدعاية التى ظلت منطلقة دون قيد عدة قرون وليس هناك من شىء أقوى حيوية من الخطأ....

وتضمنت هذه الدعاية أن الاسترقاق هو سبيل خلاص الرقيق الذين غضب الله عليهم فإنهم بدخولهم في المسيحية سيدخلون مملكة الله من قريب. وهذا الخلاص الذى وعده النصارى للرقيق فهمه هؤلاء على أنه خلاص لهم من الرق. ويبدو أنه لم يكن هناك سبيل آخر إلى إقناع آلاف من البشر فى كل يوم بصدق النصرانية. يقول "شورز" Schurz أن عدد من دخل فى النصرانية بلغ أربعة عشر ألفًا فى يوم واحد وهذا القول ينصب على الهنود الأرقاء. ولكن "هيوبرت هرنج" Hubert Herring يقول إن الأرقاء الزنوج كانوا يجبرون على دخول الدين لأن خلاص الروح كان يقتضى الاسترقاق.

ولما كان من مبادىء النصرانية العظمى « أحب جارك كما تحب نفسك » ومن مقدساتهم « صورة الله ومثاله » لم يكن لهم خيار فى ألا يعدوا الرقيق من الجنس البشرى، وفوق ذلك رغبة منهم فى الاستئثار بالأراضى المستكشفة حديثا وبخاصة أرض الرقيق فى أفريقية صور هؤلاء الفاتحون أهالى البلاد الذين لم يرحبوا بهم ولم يكرموا وفادة (صيادى الطير الأسود) فى صورة أشد قسوة وأعظم خطرا من الفاتحين أنفسهم وقد سموهم آكلى اللحوم فى البحر الكاريبى علما بأن بعض الألفاظ المستعملة فى السويد مثل "سكال" Skal ومعناها الجمجمة تذكرنا بصيادى الرءوس البيض وهى مستخدمة حتى الآن فى الأنخاب فى حفلات الشراب .

(١) انظر الفصل الثالث. ولعل الأفريقى بوصفه من «الحكماء» ذكر للمرة الأولى فى العصور الوسطى للدلالة على أن المسيحية ديانة عالمية. ولم يرد له ذكر بوصفه هذا فى الإنجيل.

ومع هذا فقد ارتفعت أصوات رجال الدين ذوى القلوب الرحيمة ضد هذه المساوىء وارتفع صوت "لاس كاساس" Las Casas تاجر الرقيق الذى صار فيما بعد قسيسا عاليا ضد محاكم التفتيش الإسبانية وقد رفضت كل كتاباته التى وجهها إليها وأسمتها « الأسطورة السوداء » وقد عارض "لاس كاساس" رق الهنود الحمر فقط فى أول الأمر وكان من رأيه أن يحل الزنوج محلهم وهم أشد منهم قوة وقد وصلت بالسفن أول حمولة منهم قبل ذلك بفترة قصيرة إلى أمريكا الجنوبية . ثم إنه ترك هذا الاقتراح بعد مدة وانضم إليه الكثيرون مثل "مونتسينوس" Montesinos و"منتوفار" Montufar يعضدونه وبهذا أصبحت الكنيسة كلها منضمة إلى الجانب الذى يعارض الرق .

وفوق ذلك كانت « سيدة جواديلوب » Lady of Guadeloupe فى نصرة الهنود الحمر. ففى ٩ ديسمبر ١٥٣١ عندما كان الهنود يكرمون إحدى قديساتهم تجلت للرئيس الهندى "دييجو" وقالت له إنها هى أيضاً أم للهنود. ولا حرج فى أن نتصور أن الكنيسة أو "دييجو" نفسه قد دبر هذا اللقاء ليكون آخر سهم يصوبه إلى الرق. وسواء أكانت هذه الحادثة - التى يحتفل بها سنويا والتى استمد منها هيدالجو بطل التحرير المكسيكى شعار الحرب - صحيحة أم مجرد أسطورة فأنا لفى أسف شديد لأن السيدة العذراء لم تكن كذلك فى عون الزنوج ولا هى كرمتهم. ولو أنها قد فعلت ذلك فلربما كانت قد قضت على كثير من المشاحنات بين البيض والسود التى لاتزال مصدرا للشقاء والتعاسة فى العالم إلى الوقت الحاضر.

وبلغ موقف السادة البيض فى مبدأ الأمر من الزنوج من شدته أنه لا يزال ملحوظا فى بعض التصرفات ولو بشكل بسيط، كما نرى فى الذكرى السنوية للقديس "نيقولا" التى يحتفل بها الأوروبيون فى بعض البلاد وفى رمزان يمثلان العلاقات العنصرية: الأول: كاهن أبيض يمتطى جوادا أبيض ويوزع الهبات الطيبة بينما خادمه "بطرس الأسود" أو "روبرخت" Rupprecht الذى يحمل كيسا كبيراً وعصا ينشر الرعب والخوف بين الصبية.



ويمثل الرسم الثانى: جمعية السرطان. والحمار الوحشى له خطوط بيضاء وصفراء وسوداء كلها فى كائن حى واحد إذا ماطعن فأصيب قلبه فإنه يموت أيا كان موضع الطعن وفى أى خط من خطوط الحيوان.

(٢ - لون البشرة)

أوروبا؟ وفى هذه الاحتفالات يمثل هذا القديس الطيب كاهن أبيض على جواد أبيض يوزع الصدقات بينما خادمه "بطرس الأسود" الذى يحمل الحقيبة السوداء ينشر الخوف والرعب ويخطف الأطفال الأشقياء .

وفى هذه اللحظة التى يهم فيها العبد بإمساك الطفل يسبقه القديس ويمنع الاعتداء عليه وسط تهليل الحاضرين وصيحاتهم، وسواء أكان هذا القديس الطيب الذى يمتطى السحاب قادما من الشرق أو من جنوب إيطاليا أم من إسبانيا، وسواء أكان خادمه من المغرب أم من مصر أم كان عبدا أسود فان هذا لا يغير من جوهر الفكرة التى يمثلها هذا الاحتفال[1].

(١) وهناك تباين بسيط فى طقوس حفل القديس "نيقولا" كان يقوم به هنود "الهوبى" Hopi له طرافته كما يقول "سيمونز" نقلا عن "كلينبرجر" Kleneberger رغبة فى تدعيم السلطة الأبوية حيث يتقدم أحد القرويين لا يعرف الأطفال شخصيته لينتزع الولد الشقى ويأخذه معه، وفى هذه اللحظة الحرجة التى لا يكاد يوضع فيها الطفل فى الكيس يتقدم والده وينجح فى خلاصه. وبهذا الإجراء يثبت الوالد قدرته على حماية ولده. ويمكن أن أزيد على هذا أنه فى بعض البلاد الأفريقية وفى جيانا الهولندية لا يمثل "بيتر الأسود" بل القديس "نيقولا" «البعبع» الخاطف. وفى سويسرا لايزال الآباء يرهبون أبناءهم بحكايات عن «البعبع الأبيض».

جزاء اللون :

قلما اعترف بأن الرجل الأسود من الجنس البشرى ومتى اعترف به فلونه الأسود لابد أن يكون آية غضب الله (وصمة قابيل) وحسب ماجاء فى سفر التكوين كان لابد أن يلبس "حام بن نوح" ثوب العقاب حتى القرن العشرين على أن هذا التفسير المنحرف الذى سنتناوله فيما يلى له ما يشبهه فى كثير من الأساطير. منها أن الله قد خلق الخلق سودا كلهم وهيأ لهم جميعا الفرصة لأن «يتطهروا» فاغتسل البيض وابيضت أجسامهم ولم يتركوا إلا الماء الذى لاقوة فيه للزنوج فلم ينظفوا إلا راحات أيديهم وبطون أقدامهم. ومنها أن الناس جميعا هم عيال الله الأعزاء فمن سرق منهم الموز صاروا سودا وكان عليهم أن يرحلوا إلى أعالى النهر فى داخل القارة وقد وهب الله البيض أطيب الأشياء ليأكلوها وأردأها للسود، وهو الذى أمر أن يعمل السود فى خدمة البيض، وهو الذى وهب البيض الأسلحة وبها قتلوا الرجل الأسود.

وتذهب قصة ثالثة من "جزائر فيجى" إلى أن من أساء العمل صار أسود وأعطى قليلا من اللباس ومن كان أقل منه سوءا كان أسمر اللون وأكثر حظا فى الملابس أما من أحسن فقد ظل أبيض اللون وأعطى وفرة فى اللباس .

وتذهب أسطورة أخرى إلى أن الله رأى ثلاثة زنوج يبكون ولكى ينفى عنهم الحزن سمح لهم بأن يغتسلوا ويصيروا ذوى بشرة بيضاء فلم يفعل ذلك إلا واحد منهم دون أخويه الآخرين. وهذا صار أبيض اللون جميل المنظر. فأكلت الغيرة قلب أحد أخويه ولكن الماء كان قد نفد فمسح بدنه بتربة الأرض الحمراء فصار لونه أحمر. أما الثالث فلم يستطع إلا غسل راحتى يديه وقدميه وهى الأجزاء الوحيدة من جسمه التى أصبحت بيضاء .

وأن من المحتمل جدا ألا تكون هذه القصص من وضع «البيض» بل تكون من وضع الزنوج أنفسهم وفى هذه الحالة يجب أن تتميز هذه القصص من القصص الموضوعة بقصد الدعابة ومع هذا فهى تتضمن سخرية لاذعة .

وفى الواقع مهما كان فهمنا لهذه القصص فليس من المؤكد أن يكون إنسان ماقبل التاريخ أسود اللون حسب نظرية "جريجورى" أو أبيض اللون حسب نظرية "ماديت" أو خليطا من أشكال مختلفة وأنماط متعددة. كما أنه ليس من المؤكد كذلك مدى ارتباط لون البشرة بتكيف الإنسان حسب البيئة المحيطة به وما أمدته به مما يقيه أثر الشمس وقد كان من قبل أبيض اللون. وعلى أساس هذه النظرية لو أن أية قبيلة من الزنوج عاشت فى الشمال مدة طويلة من الزمن لعادت بيضاء البشرة كما كانت أول مرة. ونظرا إلى أن الصفات المكتسبة لا تورث فإن أطفال الزنوج يمكن أن يولدوا بيض البشرة. وكل هذا – مع ذلك – لا علاقة له بموضوعنا: حيث إنه تناول المسألة من ناحية علم الإنسان لا يفسر الجانب الاجتماعى والنفسى لعزلة جماعات من الناس عن بعضها بعض وهى أحد العوامل المتأصلة فى المشكلة العنصرية .

خصائص عنصرية أخرى :

عندما اتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى ألوان بشرتهم، كانت هناك محاولات للعثور على نقط أخرى حتى يمكن تفسير كره الغريب Xenophobia على أسس أنثروبولوجية أو بيولوجية. وبجانب حاجز اللون ظهر حاجز الرائحة، الذى يقال إنه يجعل الرجل الأبيض يحس بنفور طبيعى من جسم غير الأبيض أو رائحته. ومع هذا فيجب أن يقال إن كل من يبنى حجته على هذه الرائحة – زهرة أفريقية – Fleure D' Afrique يغفلون أن رائحة أجسام جنسهم سواء كان – زهرة أفريقية أو زهرة أوربية – قد تكون منفرة كذلك، كما يغفلون أن هذه النظريات نشأت فى مناطق يعمل الزنوج فيها ويعرقون فى خدمة الرجل الأبيض وعلى كل حال فقد ثبت أن هناك عوامل كثيرة كالغذاء مثلا تؤثر على رائحة الجسم .

وقام حاجز جديد بين الأجناس على أساس المستويات العقلية التى ميزت الرجل الأبيض الذكى عن الرجل الأسود الأقل ذكاء أو البدائى أو المتخلف أو فى أحسن تقدير الأقل تقدما فى سلم المدنية .

وهذا التعميم دعا إلى كثير من البحوث التى كان مآلها الفشل فى أول الأمر. إذ من المستحيل أن نقارن متوسط الذكاء فى شعب غير مثقف أو متعلم بمتوسط الذكاء بين شعوب قيد تقدمهم الثقافى كثير من المحرمات Taboos، إن من اليسير أن نذكر كثيرا من النقاط ولكن أهم ما نبنى عليه التفرقة العنصرية سيظل هو لون البشرة الآدمية .

المشكلة الحقيقية :

ولو أن هناك علاقة متينة طبيعية بين البشرة وبين الإنسان الذى تحتويه فإن العلاقة الاجتماعية أو بعبارة أصح عدم العلاقة الاجتماعية بينها وبين العالم الخارجى ليست أقل منها أهمية. وكثيرا ما يجول فى الخاطر هل الاختلاف فى البشرة يسايره حقيقة اختلاف فيمن تحتويهم هذه البشرة. وإن كان كذلك فهل ولدوا على حالتهم تلك أم هم قد تغيروا من أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية. وسنتناول فيما بعد هذا الرأى الأخير لمعرفة مدى صحته. وفى هذا الفصل سنتناول الجوانب الأساسية الثلاثة لما يسمى بالمشكلة العنصرية .

١ – الجانب الأنثربولوجى: المتعلق بعلم الإنسان ويعالج هذا الجانب الرأى الذى يقول بأن الأجناس الملونة دون سائر الأجناس البيضاء فى بعض النواحى على قول وفى كثير من النواحى على قول آخر .

٢ – الجانب الأثنولوجى: المتعلق بالأجناس البشرية؛ فالاختلاف الثقافى بين الأجناس المختلفة أو الوحدات العنصرية عامل هام فى المسألة العنصرية. إذ يجعل التلاؤم فيما بينها عسيرا أو مستحيلا.

٣ – الجانب الاجتماعى: والمسألة العنصرية هنا تتأثر بتكوين الطبقات أو الدرجات المختلفة وتتصل اتصالا وثيقا بمسألة تصنيف الناس إلى جماعات. ويدخل فى هذا الجانب العوامل السياسية التى تؤثر فى المسألة العنصرية .

ومما يزيد المسألة تعقيدا أنه كثيرا ما تبذل الجهود لحل مسألة متعلقة بأحد هذه الجوانب فيستعان فيها بحجج خاصة بجانب آخر كما يستعمل كثير من الألفاظ استعمالا خاطئا مثل Xenophobia كره الأجنبى[1] أو الخوف من المجهول والكره العنصرى والحاجز اللونى والعزل الاجتماعى والتفرقة العنصرية والتحامل العنصرى فيختلط على الناس فهم مدلولها ويحدث الخطأ فى استعمالها، ولو أنه من المسلم به أن كل جانب من هذه الجوانب يتصل اتصالا وثيقا بالجانب الآخر أو أن بعضها نتيجة للبعض الآخر وسيكون ذلك موضع البحث فيما بعد .

وأنه فى غاية الأهمية أن نقرر أن المسألة العنصرية من حيث أنها مشكلة عالمية هى مشكلة اجتماعية بصفة أساسية حددت فيها بعض العلاقات الجماعية الخاطئة التى عزلت بعضها عن بعض خواص عنصرية معينة من أهمها لون البشرة. فإذا ما تكونت من أية جماعة وحدة عنصرية معينة وإذا ما اشتملت الجماعة على طبقة اجتماعية ما ولا سيما إذا كانت فى مرتبة دنيا أو فئة أضعف فقد ينشأ التمييز فى هذه الجماعة، وهذه التفرقة الطبقية قد تبدو فى صورة تفرقة عنصرية (أو تفسر هذا التفسير) إذا ما صاحب الطبقة اختلاف فى بشرة أصحابها.

ويمكن أن نضيف إلى ما تقدم أن التفرقة العنصرية قد لا تستلزم الكره العنصرى رغم ما فى هذا القول من غرابة، نسوق مثلا الأوامر الخاصة بمعاداة السامية أو إيقاف هذا العداء فى الجمهورية الألمانية الثالثة .

---

(١) لعل أفضل ترجمة بـ Prejudice ما جاء فى القرآن الكريم «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا». وإن كان الشائع هو التحامل أو الحقد أو الميل (المراجع).

التحامل والمسألة العنصرية :

« لا تكرهنى للونى » (تاجر البندقية)

يحسن قبل البدء فى الموضوع أن نلقى بعض الضوء على الحاجز اللونى فذلك يوصلنا مباشرة إلى لب المسألة ولكن من المستحيل أن نتابع البحث قبل توضيح مدلول كل لفظ .

يجب أولا أن نفرق بين "الزنوفوبيا" Xenophobia وهى: النفور الغريزى من كل ما هو غريب، وبين "التحامل" Prejudice وهو لا يكون إلا نتيجة للتلقين أو التجربة كما يجب أن نفرق بين مدلول هذين اللفظين وبين التفرقة، وهى الأثر العملى لكره الأجنبى والتحامل.

أما التلقين فهو أهم كثيراً من التجربة فى تكوين التحامل، فمثلا لو أن إنسانا لحقه مكروه من بعض أفراد جماعة ما فلن يكون لديه تحامل ضد جميع أفراد هذه الجماعة ما لم يؤكد أن ما لحقه هو قد لحق آخرين غيره عن طريق التلقين، وهذا التلقين على درجة من الشيوع فى الحياة تجعل من المستحيل على الإنسان أن يحيا دون بغض أو تحامل وأن "تاسيتس" Tacitus نفسه وهو أول من استخدم هذا التعبير Cryptopropaganda لا يمكن أن نبرئه من التحامل على الساميين .

وكيف يمكن أن نعرف لفظ التحامل .. يعرفه "ألبرت" Allport بأنه الموقف العدائى الذى يقفه الإنسان نحو إنسان آخر ينتمى إلى جماعة ما بسبب انتمائه إلى تلك الجماعة ، وهو يفترض بهذا التعريف أن التحامل لايستند إلى أساس. ونظرا إلى أننا ذكرنا من قبل أن لسوء الظن أساسا يستند إليه مهما كان واهيا فإنى أوثر تعريف اللفظ بأنه الرأى الذى يستند إلى مفاهيم خاطئة سواء أكانت النتيجة النهائية لهذا الرأى طيبة أم غير طيبة. وعلى الجملة يشمل التحامل شيئا من التحضير أو شيئا من الاهتمام بهدف ما ينظر إليه خلال منظار ملون وينطبق على هذا الموقف وعلى كل تحامل مشابه المثل الذى يقول (العين الصفراء ترى كل شىء أصفر).

وإنى أسوق دلالة أخرى على أن التحامل أمر مكتسب من نبذة من خطاب جاءنى من صديق من جنوب أفريقية بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتابى هذا فى هولندا جاء فيه قول الكاتب «إنى أذكر وأنا طفل بروتستانتى من إسكتلندا أن الكاثوليك - وأغلبهم من الأيرلنديين - كانوا يعتبرون شعبا فقيرا يجب أن يتجنبهم كل إنسان ولم نكن نعرف يومئذ شيئا عن اليهود أو الملونين: ولذلك كان علينا فى إنجلترا بعد مدة أن نعرف التحامل على هذا وذاك؛ حيث كان الكاثوليك يعدون أناسا عاديين. والآن لكل إنسان فى جنوب أفريقية الخيار فيمن يكره وممن ينفر حسب الأذواق المتعددة» .

يتضح من كل هذا أن التحامل - على خلاف كره الأجنبى - شىء يكتسب وليس بغريزى، أما التفرقة فهى «التعبير» عن هاتين الخاصيتين حتى فى الحالة التى يكون الشخص فيها مبرأ من كره الأجنبى ومن التحامل، ولقد ضربت من قبل مثلا للموضوع بمعاداة السامية .

ولا يزال أمامنا صورتان يجب أن يذكرا بجانب التحامل والتمييز؛ الأولى: وصم النوع Stereotyping وهى تتضمن نسبة بعض الخصائص لكل فرد فى جماعة بعينها كان يقال «كل الإسكتلنديين مفترون» والثانية: يسميها «ألبرت الدمغ» Labelling وسنتناول الدمغ فيما بعد، وليس الدمغ فى قوة الوصم ولكنه يصبح ذا تأثير إذا ما وصمت كل الجماعة. فمثلا يجب أن يعتقد الإنسان أن كل الزنوج أكلة لحوم البشر أو شهوانيون قبل أن يشملهم لفظ «زنوج» وهو ما يصبح مفهوما سلبيا ولا داعى لأن نذكر أن الدمغ يجب تمييزه عن التحديد Indication فهناك فرقا كبيراً بين قولك أن فلانا يهودى (من حيث جنسيته) وفلانا يهودى (من حيث صفته التى يوصم بها) .

وقد يزيد الدمغ شدة إذا صحبته علامات مميزة كالإلزام بارتداء غطاء خاص للرأس أو وضع شارة خاصة أو السير حافى القدمين ولا مانع من اعتبار هذا النوع من الدمغ دليلا على التمييز Discrimination نظراً إلى أن هذا التمييز يتضمن التعبير عن التحامل.

وإذا كان أحد أفراد جماعة منحطة لايبدو بوضوح أنه واحد من هذه الجماعة فهو لا يعامل بشيء من التحامل بعد عده من البيض إلا إذا أزيح الغطاء عن حقيقته وهذا يحدث، كما لايخفى فى المناطق التى يدعوها كيث Keith بأنها «ميكرود ياكريتك»؛ وهو لفظ يطلقه على الجماعة للدلالة على درجة تمييز أصول أفرادها، عندما يكون أقل من ٣٠٪ من هذه الجماعة فيهم المميزات الخاصة بها وهو يطلق على الزنوج لفظ «بندياكريتك» Pendiacritic أو «ماكرود ياكريتك» Macrodiiacritic، وأما اليهود وهم الذين لا يبدو أنهم كذلك عادة فهو يدعوهم «ميزودياكريتك» Mesodicritic، وهذا التقسيم شخصى غير موضوعى يدل على ذلك أن كثيراً من الأوربيين - بل أكثر الأوربيين - لا يستطيعون التفرقة بين اليابانى والصينى ولا بينه وبين الفلبينى أو الإندونيسى وأن معظم البيض متشابهون فى نظر الصينى والأفريقى .

التمييز :

التمييز قريب جدا من التحامل؛ إنه لا يزيد على أنه تحفظ بسيط نحو جماعة بعينها ولو أنه قد ينمو حتى يتجنب المرء صحبة هذه الجماعة أو يمقتها آخر الأمر.

ولقد بذلت الجهود فى الولايات المتحدة لتصنيف الصور المتعددة للتمييز العنصرى ولكن لنا أن نفترض أنها تعتمد إلى حد ما على أن يسود شخص ما شخصا آخر. أو جماعة ما جماعة أخرى سيادة مستمرة وهذا يمثله غالبا الرغبة فى الاحتفاظ والتمسك باحتكار أو أكثر لا يستثنى من ذلك احتكار العقل والسلوك.

ولو أن التمييز العنصرى (وهو غير الولاء للقبيلة الذى يمنع جماعة بعينها أن يتفرق شملها بمصاهرة جماعة أخرى) قد يظهر فى عدة صور فهو عادة يتخذ إحدى الصور الثلاث الآتية :

أ - حملة معارضة صريحة.

ب - سخرية.

ج - عطف أو تسامح .

أ - ليس هناك ما يقال عن الصورة الأولى إلا القليل فهى صريحة وهى فى «بعض الأحوال» صحيحة «غالبا». ونحن قلنا فى بعض الأحوال، وغالبا لأن الناس - كما سبق القول - قد يضطرون إلى المساهمة فى القيام بحملة معارضة فالرجل الأبيض مثلا فى جنوب أفريقية مهما بلغ عطفه على الأفريقيين لايستطيع أن يشغل مقعدا فى عربة السكة الحديد المخصصة للأفريقيين. وإنا لنجد فى هذه الحملات التى تدبر فى وضح النهار ذلك الدمغ الشهير لما يعزى من خصائص الجنس الأدنى ويختلف ما يوصمون به من مكان إلى مكان ومن وقت إلى وقت - كما يقول «أرنول روز» Arnold Rose والألفاظ الدالة على جنسهم هى قطاع من هذه الحملات الصريحة (دين و روزن Dean and Rosen) ومن نماذجها أن يطلق عليهم الزنوج واللقطاء وغير ذلك .

كما يسمون أعلى المسارح عندهم باسماء العبيد للحط من مكانتهم كما أن الامتناع عن تأدية الواجبات التى تفرضها الآداب العامة لهم هى لون واضح من ألوان التفرقة. وفى جيانا الهولندية مثلا نرى شيئا من هذا عندما يتجاهل الهولندى أى فرد يحاول التحدث معه قبل أن يبدأه بالتحية.

ومن الصور الواضحة للتفرقة التفرقة الاقتصادية وفيها تبقى الاحتكارات أو بعض المراكز المحتكرة وقفا على الجماعة الحاكمة ومنها احتكار التعليم حيث يقصر على الأقلية ويحصر فى أضيق الحدود على أن أشد الاعتداءات ظلما على الجماعة المنبوذة هما القتل على جذوع الأشجار للأفراد والقتل بالجملة للجماعات Pogrom[1].

ب - والسخرية وهى الصورة الثانية تعتمد على النكات والكاريكاتير أو ما يسمى بالنكات العنصرية Ethnic Jokes "دين و روزن" وهى إما أن تكون خفيفة أو أن يكون لها معنى بعيد ملحوظ نذكر على سبيل المثال ماقيل عن طبخ المبعوثين إذ فيها إشارة إلى الزنوج آكلى لحوم البشر.

(١) وكلمة "بجروم" Pogrom مشتقة من كلمة "بجروميت" Pogromit الروسية بمعنى القتل وعم استعمالها عند ثورة القوزاق سنة ١٦٤٨ عندما صار اليهود جماعة محايدة فوقعوا فريسة للأشراف البولنديين الذين كانت ديانتهم هى الكاثوليكية الرومانية ولجماعة فلاحى اليوكرين الكاثوليكيين.

ج- والصور الثالثة هي صورة العطف الكاذب وهو إشفاق أكثر منه عطف وهذا يتضح من بعض العبارات مثل قولهم «أنا كثير التفكير في حالة الزنوج» أو «أنا بعض أصدقائي من الزنوج أيضا» و «أنا أقدر شعبكم تقديرا كبيرا». فإذا كان للكلام بقية مثل «ولكني لا أود أن أتزوج زنجية» أو «ولكن هل أنت على ما يرام من ناحية الزنوج» فإن ذلك يكون دالا على «لغة التحامل» وهو الاسم الذى أطلقه عليها "دين و روزن" Dean & Rosen وقد يحدث لبس في مثل هذا الكلام. فإذا قيل «أنا كثير الاحترام لسائق عربتي الأسود ولكني لا أطيق النوم في نفس فراشه» فهناك لبس بين التفرقة المبنية على المكانة والمبينة على العنصر. وهذا اللبس يحدث كثيرا في المسائل العنصرية. و اعتراض السيد على النوم في فراش خادمه لا شأن له بالخلاف العنصري. وفي هذا المثال كان الخلاف في منزلة الرجلين متخذاً اللون العنصري.

ومن صور العطف الذى ينطوي على التفرقة ما يقدم لأفراد الأقلية من شهادات التقدير. وفيها تنازل مصطنع من السادة لأفراد الأقلية وهؤلاء إما أن يكونوا شديدي الحساسية إزاءها أو يصبحوا في حيرة شديدة فيما يراد القيام به في مقابل هذه الشهادات .

ومن آثارها «عقدة الغلام» وهذا اللفظ الذى يستعمله السادة الأتراك لخدمهم وهو يدل على منزلة السيد المتلطف أو الحاني على خادمه. وهذه المسائل في غاية الأهمية كما دل ذلك بيان "الكونجو" سنة ١٩٥٦ الذى دعا إلى وجوب ترك الرجل الأبيض احتقاره للأسود وصداقته المستفيضة.

ولم يكن ليخفي هذا «العطف» عدم وقوف الرجل الأبيض في طريق الرجل الأسود ليقنعه أن التفرقة لا يقصد بها جنسه هو ولكنها موجهة إلى جنس آخر .

وفي معظم الأحوال يكون هذا العطف ظاهراً ويشعر الأبيض بخيبة الأمل إذا لم تقدر نواياه الطيبة ولم يقابل بالتقدير الذى كان ينتظره وإذا لم تصبح الخدمات المنتظرة جزاء على كل هذا حقيقة ماثلة، عند ذلك تتحدث الجماعة المخدوعة

عن «عدم التعاون» وقد "أبدى جليك" Glick الملاحظة الآتية فى مؤتمر العلاقات العنصرية الذى عقد فى "هونولولو" سنة ١٩٥٤ قال : «لعل الرجل الأبيض يرى نفسه قائما بدور صاحب الفضل إنه يلفت الأنظار إلى اهتمامه العظيم بجماعة الأقلية كلها وهو تواق إلى إقناع كل فرد منهم بأنه لا يضمر أى سوء لأى واحد منهم وأنه يفهمهم على أحوالهم وهو شديد الرغبة فى أن يقابل صنيعه هذا بالتقدير».

ولقد أصبح الآن فى غاية الوضوح كيف يسىء غير البيض الظن وكيف صاروا مرهفى الإحساس إلى حد كبير. ان هذه المظاهر ليست من الخواص المتعلقة بإختلاف الجنس على الإطلاق وإنما هى تفسير عنصرى لإحدى المسائل الاجتماعية كما يذهب إلى ذلك "توينبى" Toynbee.

الدمغ :

نظراً إلى أن الدمغ يشمل أسوأ جوانب التحامل والتمييز يحسن أن نطيل الحديث فيه. ويجب أن نؤكد - مع هذا - أن كثيراً مما يسمى بالصفات العنصرية التى تذكر لتكون وسيلة للدمغ ليست طبيعية ولكنها مبنية على عوامل خارجية. فمثلا لو أن قوما يقيمون فى منطقة قليلة الخيرات بسبب بخل الطبيعة عليها فقد يكونون مقتصدين غير مسرفين. ولربما يصبحون مبسوطى الأيدى إذا أقاموا فى منطقة أكثر خيرا وأوفر إنتاجا. ويجب أن يراعى كذلك أن للمناخ على ما يبدو أثرا عميقا فى المدينة وفى سلوك الناس .

ويرى "هنتنجتون" Huntington أن تقدم المدنيات بين المدارين كان أبطأ فى الأراضى المنخفضة التى تدعو إلى الكسل والراحة وكان أعظم فى المرتفعات التى تبعث النشاط والهمة. فلو أن الجو الحار كان فى الواقع مما يضعف مقاومة الناس للدوافع الانفعالية بما فيها انفعالات الجنس لما كانت هذه الصفات عنصرية بحتة. وعلى الجملة يبدو جليا أن الدمغ ينشأ غالباً من الجهل أو من الأحكام التى لا تستند

إلى أسس سليمة، ومع هذا فالدمغ المتبادل بين البيض وغير البيض وما يصحبه من اتهام متبادل بين الطرفين سنعالجة فى هذا الفصل من الكتاب .

- إن رأى البيض يمكن أن نوجزه فيما يلى :

- الزنوج وثنيون متعددو الألهة ويجب أن نردهم إلى الإيمان.

- وهم أكلة لحوم البشر أو هم على الأقل كانوا كذلك.

- وهم غير متمدينين ويمشون عراة الأجسام.

- وهم لا يؤتمنون.

- وهم يحبون الظهور ومغرمون بالحلى البراقة.

- وهم لا يعرفون قيمة النقود.

- وهم شهوانيون ولأجسامهم رائحة خاصة.

- أن لون الزنجى فيه دلالة على ظلمة عقله.

- وهذا الدمغ يقابله من الزنوج هذه الآراء المعممة اللاذعة.

- إن البيض نصارى ولكن لهم مذاهب دينية كثيرة وكل منها يعتقد أنه أسمى من غيره وأنه هو وحده الصحيح .

- ورؤساؤهم هم أنصاف آلهة مقنعون. وبعض المذاهب يؤمنون بإله واحد والبعض يؤمنون بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر.

وإذا كان الزنوج آكلى لحوم البشر، فالبيض يقتلون الجموع الكثيرة ويشنون الحروب بعضهم على بعض وهم حين يقتلون لايفعلون ذلك تقربا إلى الله ولا ليحصلوا من ورائه على ما يقتاتون به. ولكن يفعلون ذلك حبا فى المال أو السلطان أو النفوذ، وإنه لموضع شك أن يكون الزنجى قد ارتكب من حوادث القتل جزءا من ألف جزء مما قام به الرجل الأبيض.

وفى الواقع لقد أخذ الزنجى يستفيد من هذه الظروف من مدة غير وجيزة ولقد كان للحرب العالمية الثانية أثر عظيم فى إيقاظ الشعوب الأفريقية. ورأى الأفريقيون كيف يقوم من يسمون أنفسهم بالمتمدينين المسالمين من البيض بتقتيل بعضهم بعضا بلا أدنى رحمة كما كان يفعل تماما من يسمون بالمتوحشين من أجدادهم فى حروبهم القبلية. لقد تعلم الأفريقيون والأسيويون كيف يقاومون استعماراً واحدا هو الاستعمار الألمانى ولكن أكبر درس تعلموه هو «أن سيطرة أية دولة على دولة خطأ» كما يقول "ندابانجى سيذولى" Ndabaningi Sithole.

أما الثقافة الأصلية فقد دمرها البيض وما بقى منها فمثواه متاحف البلاد الغربية. وللموسيقى الزنجية أثر كبير فى فن الرجل الأبيض، ولقد تحولت الصور التى لا يمكن تخيلها والتى كان يرسمها قدامى المصورين إلى فن ومذهب تعبيرى حديث ربما بتأثر الثقافة غير الأوربية. وجانب كبير من الفلسفة والكتاب المقدس نفسه كليهما من أصل غير أوربى . ثم ما الذى أفاده الملونون من البيض؟.. الأبنية الضخمة التى توجد بها مكاتب الأشغال والإدارت الحكومية والطرق التى تؤدى إلى المزارع العلمية وقناة السويس التى كان الدافع إلى شقها الإهتمام بالشئون الحربية والأعمال التجارية. ولقد أخذنا فى مقابل كنوزنا الفنية أفلام رعاة البقر وغيرها من السيئات والتوافه. ولدى البيض فكرة خاطئة هى أن مدنيتهم شىء مثالى ويستحق الخلود. والواقع أن أوربا لم تكن متفوقة على سائر القارات إلا من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين (سيدار سنجور) Seder Senghor.

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن البيض قضوا على العزلة التى كنا فيها وكانوا سببا فى تقدم بلادنا، ولكن الدافع إلى ذلك كان ما يرجونه من نفع .

وقد قل بل انعدم ما ينفق على البعثات والتعليم حقبة طويلة من الزمان. ومع هذا فقد كان عجز الشعوب غير الغربية فى الإدارة والأعمال والاستفادة مما يأتى به الغرب إليهم وهى ظواهر أصبحت من مميزات هذه الشعوب وجدت لديهم بسبب تعمد هذه الشعوب المحكومة على الخروج على سيادة الغرب. إنها فى مركز لا تحسد عليه ولكن

السبب الحقيقى سوف تظهره الأيام، وعلى كل حال هل لا علاقة لكل هذا بالتمييز العنصرى؟ أم له علاقة به؟...

إن الزنجى لا يؤتمن. وهذا حق من حيث أنه لا يتردد مطلقا فيما ينبغى أن يعامل به أعداءه أو من يريدون به السوء، وهو حق كذلك يقوم به كل فرد فى الأمة المغلوبة على أمرها حيث يعتبر التخريب وعدم التعاون أمرا مألوفا بل عملا مشرفا. وفى مقابل هذا نرى الرجل الأبيض كثير الوعود قليل الوفاء.

وعندما كان الزنوج يملكون الأرض جاء الرجل الأبيض وفى يده الإنجيل ولكن بعد أن مرت عقود قليلة أصبحت الأرض للبيض والإنجيل فى يد الزنجى "فريزييه" ... Frazier .

وفى زمن الحرب يدعونا الرجل الأبيض إخوته، وأما فى زمن السلم فهو لا يقبل أبناءنا فى مدارسه.

والزنجى يحب المظاهر. ولكن بلاد الرجل الأبيض ملأى بالحوانيت التى تبيع توافه السلع والجواهر الزائفة التى يزدان بها الأهالى. والبيض يظهرون ما بأيديهم من ثراء ويحاكون من هم أسمى منهم قدرا وأعرض جاها.

والزنوج لا يعرفون قدر النقود. ولكن البيض يعبدون المال الذى جلبوه لنا. وإلى جانب الكنيسة يقوم المصرف وكلاهما معبد الرجل الأبيض. وعطلة المصرف تغنى عن كل تعليق.

وفوق هذا فالرجل الأبيض يحب جمع المال ويبحث دائما عن العمال ذوى الأجور البخسة.

والزنوج بدائيون، ورقصاتهم الشعبية، وأعيادهم وثنية، ولكن آلاف البيض يهللون فرحا – إلى يومنا هذا – عندما يشهدون مصارعة الثيران وهى لاتتفق مطلقا مع مدنية القرن العشرين ولا مع تعاليم المسيحية. وكل محاولة لتبرير ذلك بأن يقال إن الواجب

يقضى بتفهم روح من يشهدون هذه الحفلات أو يشتركون فيها - هذا التبرير يمكن أن ينسحب على آكلى لحوم البشر وتعدد الزوجات - "رتشموند" - Richmond وغيرهما بأعذار مشابهة. فلماذا لا نحاول تفهم روح من يحتفون بهذه الأعياد.

والزنوج شديدو الغلمة. والبيض لديهم بيوت الدعارة ودور البغاء السرى وقد شاعت فى مجتمعهم قرونا عدة وفى فنادقهم يقطن آلاف من الأخدان غير المتزوجين.

وللزنوج رائحة خاصة. ولكن من البيض من لا يستحمون إلا مرة كل أسبوع. ومن السخف أن تقارن رائحة شخص معطر من الطبقة الراقية برائحة عامل. وأكثر سخفا من ذلك مقارنته بعامل غير أبيض، وبناء كثير من النتائج المنطقية على تلك المقارنة.

ويدعى البيض أن الذكاء وروح الفكاهة والابتكار لهم دون غيرهم. وهذه المغالطة يتقبلها من لا يرون إلا ما لا يتجاوز وقع أقدامهم. فإن أوربا لم يكن مآلها إلا الانحطاط منذ زمن سحيق لو كانت فى عزلة عن الثقافات الأخرى. إن كل مدنية لابد أن تندثر لو ظلت عقيمة لا ينالها خصب مدنية أخرى.

تكفى هذه المآخذ من وجهة نظر غير البيض. لقد أوجز "رتشموند" Richmond ألوان الدمغ وكتب فى ذلك أن فى إنجلترا من يعتقد أن «أهل المستعمرات» وثنيون، وغير متمدينين وشهوانيون وجهلاء قليلو الخبرة فى الاقتصاد وغير مستقلين. كما يعتقد من وجهة أخرى كثير من أهل المستعمرات أن إنجلترا بلاد مسيحية ليس من شيمة أهلها التعصب العنصرى، فيها رخاء ويسكن أهلها فى بيوت متسعة. وأن نساءها مولعات بالرجال الملونين وأن لكل بريطانى الحق فى التعليم العالى وأن بريطانيا بلاد قوية وأن معظم قوتها مستمدة من كثرة مستعمراتها.

أول رد فعل للحاجز اللونى :

كان من المنتظر أنه عندما انتهى عهد الرق والاستعمار أن يفكر الزنوج فى أن يتخلصوا من اسمهم هذا الذى فيه إشارة إلى الرق أو إلى الرق السابق والذى يعيد

إلى أذهانهم القيود القديمة التى كانوا مقيدين بها وأن يتخلصوا أيضا من تخلفهم الثقافى. وهروبا من لفظ موجب كلفظ زنجى أو ملون استعمل لفظ سالب فى كل مكان واستعمل «غير الأبيض» رغما من أن فيه إشارة إلى التفرقة. وفى صحوتهم العنصرية التى أصبحوا يحسونها - بل لعلى أقول فى اكتشافهم لشخصيتهم التى ظلوا محرومين منها طويلا صار كثير منهم يحسون بالفخر بأنهم زنوج ويطلقون على أنفسهم هذا الاسم ويكتبونه بحروف واضحة.

وهذا اللفظ «غير الأبيض» لحقه أيضا تغيير من حيث أنه اكتسب معنى «ضد البيض» لدى الزنوج وغيرهم من الأجناس الأخرى. بل شمل الشعور «بضدية البيض» أقواما مختلفين عن العنصرين جميعا ممن نشأوا معا فى ظل الاستعمار. ومن هنا نشأ نوع من القومية أساسها لون البشرة (من ضدية البيض).

تطهير الاسم :

كل محاولة لتفخيم اسم أحد الشعوب يجب أن يكون هدفها محو أسماء معينة تتضمن شيئا من الازدراء حتى وإن لم تكن تحمل هذا فى الأصل. وفى كثير من المستعمرات كان الأهالى يسمون بالوطنيين. وهذا اللفظ أصبح دالا على التحقير لا لسبب إلا لأنه أطلق على شعوب غير مستقلة. ويذهب "توينبى" إلى أن تسمية أية جماعة أجنبية بأنهم وطنيون مع عدم الاعتراف بأن لهم أى نشاط اقتصادى يتضمن تصنيفهم كالحيوان والنبات فى عالم جديد.

ولهذا السبب عينه أصبحت الأسماء التى كانت تطلق على الشعوب الملونة غير مقبولة لديهم مادامت تتضمن التبعية السياسية[١]. وكانت النتيجة المفهومة لهذه التفرقة

(١) يمكن هنا أن نذكر الكلمة الإنجليزية House maid, Labourer وقد حل محلها الكلمتان Domestic help, Worker وفى مصر أخذ لفظ عمال المنازل يحل محل لفظ «الخدم» وشاع هذا فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى مايو سنة ١٩٦٣ .

فى اللون والاسم أن أصبح الزنجى بصفة خاصة يحاول إخفاء أصله أو يختار اسما جديدا لجنسه. كلفظ أفريقى فى أفريقية مثلا أو يحاول إضفاء العظمة على لفظ «زنجى» كما ذكرنا من قبل .

ونظرا إلى ما كان لكلمة «Asiatic» من مدلول خاص فى المستعمرات استبدل بها كلمة «Asian»، وحيثما كان لون البشرة نتيجة اندماج لونين كالذى يدل عليه لفظ «Eurasian» أو «Anglo -Indian»، فهناك جماعة متوسطة أسمى منزلة من الجماعة الأشد منها سمرة رفع منزلتها أحد شطرى اللفظ وحط منزلتها عن البيض الشطر الآخر منه. ولهذا لم يكن كل من هذين اللفظين مقبولا. وكان هذا هو ما قوبلت به كلمة «Mulatto» أو مولدين وهى مشتقة من كلمة تفيد التهجين وهذه الكلمة استبدل بها كلمة «كريول» فى سورينام وقد أطلقت على الزنوج كذلك. وأول ما استعملت هذه الكلمة عندما أطلقها الإسبانيون على البيض الذين يولدون فى المستعمرات ولو أنها قد تدل أيضا على الرقيق الذين يولدون فى المستعمرات خلافا لمن يجلب من الرقيق من خارج البلاد[١]. ومهما كانت حجة هذا القول فإن هذا اللفظ يطلق الآن على كل من يولد فى أمريكا الجنوبية وبخاصة المنطقة الكاريبية[٢]. ويجب أن يكون مفهوما أن كل من يطلق عليهم هذا اللفظ من البيض أو الصينيين أو الهنود الذين يولدون فى جنوب أمريكا لا يطلق عليهم بسبب ما فى اللفظ من دلالة على السواد[٣].

(١) وقد كان ابن الرقيق ملكا لأم سيده وعلى هذا لا يدفع له ثمن. (المراجع)

(٢) ويطلق اسم «الكريول» أيضًا على الأفريقيين الذين عادوا إلى قارتهم من أمريكا وبريطانيا واستوطنوا سيراليون - فى غرب أفريقية - وتمثل ذراريهم حتى الآن مجتمعا سائدا متميزا عن السكان الأصليين هناك . (المراجع)

(٣) عند ذكر لفظ الهنود Indians فى هذا المقام نقصد الهنود القادمين من الهند ونطلق الهنود الأصليين على هنود أمريكا. وفى أمريكا الجنوبية الإسبانية كان المستعمرون الأوربيون يطلقون أسماء مختلفة على الجماعات كما يلى فيسمون "كابوشين" Capuchines أو "كابيتون" Capetones وجاء بعد هؤلاء "الكريول" Creole وهم أبناء الرعيل الأول بشرط ولادتهم فى أمريكا الجنوبية ثم أطلق "المستيزو" Mes-tizos على أبناء البيض والهنود الحمر "والمولاتو" على أبناء البيض والزنوج. ثم أطلقت على الهنود وعلى أبناء الهنود والزنوج وأخيرا على الزنوج.

ثم حدثت محاولات مهمة لرد الاعتبار لأسماء الشعوب، مما رد إليها مكانتها، ودفع إليها الشعور الدينى. من ذلك ما فعله "جارفى" Garvey سنة ١٩١٤ فى الولايات المتحدة: حيث أسس كنيسة أفريقية تنادى بمذهبه الخاص مثَّل فيها الإله زنجيا والسيدة العذراء زنجية. وقد ظهرت فى أفريقية الكنيسة الأرثوذكسية "للكيكيو" kikiu وغيرهم وكانت الأسماء التى استعملت فيها مماثلة للأسماء التى يستعملها الرجل الأبيض ولكنها كانت لا تعترف بسيادته. وهذه الحركات كانت مختلفة بطبيعة الحال عن الحركات الموجهة ضد الغرب كحركة "الماوماو".

خطوة جديدة، ثورة الطبقة الخامسة :

إنه من الأهمية بمكان أن الخطوة التالية فى تطور المشكلة العنصرية والصراع ضد الحاجز اللونى قد وصلا إلى علم عامة الناس - هذه الخطوة ترجع إلى الجوانب الاجتماعية - فأى جنس «أدنى» مهما كان نوع دونيته هو فى مرتبة أدنى من جنس أعلى منه حتى لو كان علو هذا الأخير راجعا إلى قوته الحربية أو الاقتصادية وهذا دعا إلى التفرقة بين الشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة (من أنت؟) وفى المنزلة الاجتماعية (ماذا تملك؟) ولم يكن هذا التمييز على درجة كبيرة من الظهور إذا صحبته فروق فى لون البشرة. وقبل أن نعالج الفرق بين الوضع السياسى والطبقى من حيث علاقة كل منهما بلون البشرة يحسن أن نتناول مفهوم كل منهما بعبارة وجيزة.

ففى أوربا قبل العصور الوسطى بمدة كان هناك تمييز بين الوضع السياسى للنبلاء ورجال الدين وسواد الشعب. وكان الأطباء والمحامون ومن فى مرتبتهم يكونون طبقة متوسطة مستقلة[1] ومع وجود هذه الأوضاع الثلاثة السياسية كان هناك فارق

(١) لم تكن التجارة مقصورة على طبقة واحدة وهذا أحد الأسباب التى لم تمنع اليهود من التجارة ولم يعد التجار من الطبقة المتوسطة إلا حديثا.

مبنى على مدى ما يملكه الفرد "كالبروليتاريه" كما كان يطلق عليهم فى رومة Proletaria لم يكونوا يمتلكون إلا أولادهم "البرول" Proles وهذه الطبقة الدنيا أطلق عليها فيما بعد اسم الطبقة الرابعة.

ولو أن هذه العلاقة الجذرية المستقرة فى العلاقات الطبقية لحقها بعض التأثير من وقت إلى آخر إلا أن التأثير الكبير الذى أصابها وأحدث فيها تغييرا كبيرا، كان إبان الثورة الفرنسية عندما قضت الدولة الثالثة Tièrs Etat على الطبقتين الأولى والثانية. وكان للطبقة الرابعة اليد العليا فى الثورة الروسية.

وأثمرت هاتان الثورتان «المساواة» التى حصلت عليها فى أثناء القرن الحالى كل البلاد الغربية حتى صار لكل فرد فى الجماعة صوت مساو لغيره فى اختيار ممثليه فى المجالس النيابية وأكثر من ذلك كان لهذه «المساواة» ميزة هامة: حيث خولت لأى فرد من أى طبقة ممن يجمعهم لون واحد أن يدعى الانتماء إلى طبقة أخرى إذا قضت بذلك ضرورة أو مصلحة.

فها هو ذا رجل يحمل صندوقه الصغير وما فيه من مأكولات بدلا من أن يحمل أوراقا مهمة، وآخر فى فمه لفافة فاخرة من الطباق بدلا من علبة اللفافات التى يحملها أفراد الطبقة الرابعة. وبهذا القياس يمكن أن يفكر الإنسان فى خواتم التوقيع والأردية المصطنعة والأسلحة التى تدل على الأصل النبيل.

ولو أن مكانة الناس ظلت متميزة بالملابس الخاصة وما يماثلها فإن هذا لا يقارن بالخاصية التى لا يمكن أن تتغير معها الطبقة ولا المنزلة السياسية؛ ألا وهى لون البشرة. إن هذه مشكلة قديمة. فالتفرقة على أساس الحاجز اللونى أو المكانة كانت سابقة فى روما القديمة لوجود التصنيف اللونى فيها من زمن طويل. وفى الهند كان التقسيم إلى طبقات إلى لون البشرة أو "الفارنا" Varna[(١)]. ووجد نظام جديد لتقسيم

(١) الواقع أن الطبقات كانت نتيجة لتقسيم الشعب إلى طبقة الكهنة والمعلمين وطبقة العسكريين وطبقة التجار وطبقة أصحاب الحرف وهى أدنى الطبقات ومما يجب ملاحظته أن "كرشنا" Krichna أحد صور "فشنو" Vishnu كان أسود اللون.

الناس إلى طبقات بعد القرن الخامس عشر فى المستعمرات عندما احتل البيض أرفع الوظائف فى كل عمل. وكان لهم طرقهم الخاصة فى الحياة. وعاداتهم الخاصة وكان لهم فى أغلب الأحيان قوانينهم الخاصة كذلك.

وكانوا لايصهرون إلا فيما بينهم إلا فى أحوال استثنائية ثم إن «الديانة البيضاء» قد جاءت باحتمال أو أمل حصول البيض على مكانة عليا. ولكن الواقع أنه حتى وحدة الديانة - كما فى الديانة الهندوكية - لم تسد الثغرة بين الطبقات المختلفة أو بين الأحوال السياسية. وهذا يوصلنا إلى النتائج الآتية :

أولا: لم يكن الرقيق وسكان المستعمرات الأصليون من بعدهم إلا أدنى الطبقات. مما يضعهم فى مصاف الطبقة الخامسة. حيث إنهم كانوا أقل من أدنى طبقات البيض أو طبقتهم الرابعة[١].

ثانيا: والطبقة الخامسة كانت تتميز بلون بشرتها.

ومما هو جدير بالذكر أن عبارة الطبقة الخامسة فيهما لها نفس معنى المنزلة الاجتماعية لأن الطبقة الخامسة لم تتكون من جماعة ذات عنصر واحد، بل من جماعة تشمل طبقات مختلفة من الأجناس المحكومة خضعت جميعها بحكم القوة.

ومن هنا يتضح أن حركات الحرية فى المستعمرات أصبحت هى ثورات الطبقة الخامسة من حيث هى طبقة، ولو أنها كانت أبطأ من الثورات الأخرى وسالت فيها الدماء فى مدى أطول. ولعل لفظ Coate. Class أنسب الألفاظ فى هذا المقام حيث إن الثورة الجديدة تتضمن ظاهرة اللون التى تجعل من المستحيل إحداث أى تغيير فى الحالة السياسية. والأغنياء المحدثو، Nouveaux riches والصفرة الجديدة Nouvelle élite لا يمكن أن يختفوا وسط الطبقات الأربع الموحدة اللون؛ ذلك لأن البشرة لايمكن أن تخلع كما تخلع ملابس العمل. بل نتيجة لهذا كله حدث عكس ذلك تماما وصار

(١) الفقير الأبيض كان يسمى زنجيا.

اللون القاتم هو اللون العالمى للطبقة الخامسة كما صارت القبعة الفريجية[1] هى علامة الطبقة الثالثة.

أوراق البيض وأوراق السود على المائدة:

غير خاف أن حركة تقدم الزنوج - بل كل الأجناس الملونة - لم يرض عنها البيض ولا يزال موقفهم كذلك منها إلى الآن. ولا مراء فى أن تقدم الزنوج لا يمكن بلوغه ما لم يرفع عن كاهلهم سلطان البيض وهذا ما يدعو دائمًا إلى نعت تقدمهم بأنه حركة هدامة. وقد اتخذت الإجراءات أحيانا لوقف هذه الحركة بالقوة ووضع رؤسائها فى السجون ولم يكن لهذا من نتيجة إلا توسيع شقة الخلاف بين البيض والسود. ولا تتحسن الأحوال إذا ما ناصر البيض آمال السود لأسباب سياسية فكثيرا ما تؤدى إلى كشف وسائل السود وإلى إيجاد عدم الثقة فيما يقوم به البيض من خدمات أو يبدون من شعور طيب وهذا واضح فى كلمات السيد "كوامى نكروما" رئيس جمهورية غانا إذ يقول :

«ليس غرض الرجل الأبيض سواء ظهر أم خفى إلا السيادة. وهكذا نحن فى موقف نرى فيه الأسود غير واثق بما ينشئه الأبيض من علاقات يجب أن يبرهن على حسن نيته فيها. والآن يرتفع المد الملون ويهدد الجسور ولا يمكن إيقاف هذا الخطر إلا بالتمسك بمبادئ الأمم المتحدة التى توجب احترام كل فرد غيره دون نظر إلى لونه. وهذا ينطبق من الناحية التاريخية على الرجل الأبيض أما من وجهة نظر الرجل الأسود فهذا يتضمن إحدى نظرتين، وبناء على النظرة الأولى نخال الرجل الأسود

(١) قارن الارتباط بين ثورة الأشراف والعهد الأعظم Magna Charta فى إنجلترا سنة ١٢١٥ وثورة الطبقة الثالثة وإعلان حقوق الإنسان Drotits de L'homme فى فرنسا سنة ١٧٩٠ وثورة الطبقة الرابعة وإعلان حقوق العمال الكادحين فى روسيا سنة ١٩١٨ وثورة المستعمرات ومؤتمر باندونج Bandong سنة ١٩٥٥ .

يقول «فى قلبى أمر خطير واحد أخافه ذلك أنه إذا أحب الرجل الأبيض يوما ما فإنه سيجد الرجل الأسود كارها». وأما النظرة الثانية فإن الرجل الأسود يقول «أنا الشخص الذى خلق فى بشرة مخالفة لبشرتك. إنى أمد يدى إليك لنعيد معا بناء هذا العالم الظالم ونجعله أفضل مما وجدناه. وأنا الإنسان فى إهاب مخالف».

الفصل الثانى

الجانب الجغرافى للحاجز اللونى

يجدر بنا - بعد أن تناولنا مسألة اللون - أن نتتبع الخط الفاصل أو الحاجز اللونى بين ألوان الجنس البشرى فى العالم أجمع وقد أصبح الحاجز اللونى بسبب كثرة استعماله لفظا واضح المعنى لا يحتاج إلى شرح فهو يعنى الحاجز الخفى أو الجلى الذى يفصل البيض عن غير البيض متغيرا حسب الزمان والمكان والظروف[١].

ويمكن تقسيم المظاهر التى تقع على جانبى الحاجز اللونى إلى نوعين يمكن تسمية أحدهما بالظرفى وتسمية الثانى بالقصدى. وأمثلة السياسة الظرفية تراها فى الولايات المتحدة حيث الأمريكيون ضد الزنوج فى الجنوب لا فى الشمال على أنه - مع هذا - لا يعد مناصرا للزنوج بحال. ويسود هذا الموقف نفسه فى المستعمرات البريطانية. وأما فى روديسيا فالأفريقيون محرومون من الوظائف الكبيرة ومن النوادى والحوانيت والمكاتب بل من المصاعد ما لا يباح لهم دخولها ويسمى فى روديسيا بنظام المدخل الضيق The hatch System وهو شبيه بتعليمات جيم كرو[٢] التى تتبع فى بعض

---

(١) يبلغ تعداد العالم حسب تقدير الأمم المتحدة ١٩٠٠ مليون نسمة من غير البيض، ويبلغ البيض ٨٥٠ مليونا. وهو أقل من نصف العدد الأول. وسيبلغون حسب تقدير الأمم المتحدة فى نهاية القرن ٦ بلايين أو سبعة أى ضعف عددهم سنة ١٩٦٠ وسيكون فى أسيا وحدها ٤٠٠ مليون، ويبلغ الصينيون خمس عدد العالم. وسيبلغ الأفريقيون ٥٠٠ مليون والأمريكيون ٣٠٠ مليون والروس ٥٠٠ مليون. والباقى يشمل سكان غرب أوربا. ولا يعلم أحد كيف تحل هذه المسألة. إن تخطيط الأسرة يقوم به من سمع به وعرف أمره. أى البلاد المتقدمة. وعلى هذا فأكثر الشعوب عددا هى أسرع الشعوب فى زيادة عددها.

(٢) جيم كرون عنوان أغنية زنجية يغنيها دين ريس Dean Rice ألفت سنة ١٨٣٠ ويبدو أن عنوان الأغنية يشير إلى لون الغربان الأسود.

المناطق فى أمريكا خاصا بعربات السكة الحديد والفنادق ودورات المياه وغيرها. وفى سائر المستعمرات البريطانية ليست العلاقة فى مثل هذه الشدة. ولعل ذلك راجع إلى أن الأجناس أكثر اندماجا.

أما السياسة الصارمة المتبعة في جنوب أفريقية - سياسة "الأبرنهيد" Apartheid - فهى السياسة القصدية.. وفى بعض المجتمعات حيث يوجد قطاع آخر يشمل ذوى الأجناس المختلطة يوجد فاصل ثان بين هؤلاء وبين الجماعة الكبرى التى انفصلوا عنها. وفى بعض البلاد يعد هؤلاء رسميا من البيض وفى غيرها يعدون من الزنوج. وبناء على قول "جيمس برايس" James Bryce توجد بلاد يعد فيها أبيض كل من ليس بأسود وبلاد أخرى فيها عكس ذلك. وهو ما يتفق مع قانون السود القديم فى فرنسا Code Noir.

النظام البريطانى:

يعد كل سكان المستعمرات البريطانية رعايا بريطانيين. ومع هذا ففيها فاصل واضح للون يصحبه تمييز بين الملونين والبيض وفيها قدر يسير من الاندماج على أنه مقصور على الآسيويين. وفى هذا النظام البريطانى يعد ذوو الأنساب المختلطة والأوربوأسيويون من «الملونين» أو «غير البيض».

وقد ذكر "آلان برنز" Allan Burns فى كتابه «دفاع عن المستعمرات» أن البريطانيين لم يحاولوا الاندماج مع الوطنيين فى مستعمراتهم لأنهم أرادوا أن يحفظوا لهم أصولهم غير مختلطة وألا يدمجوهم ثقافيا ولا جنسيا فى جماعات كبيرة العدد من الأجانب[١].

(١) إن دعوى عدم رغبة البريطانيات فى إنجاب الأطفال فى المستعمرات ليتجنبن وصمهم بنسبتهم إلى جنسية المستعمرات Colonial هى دعوى غير صحيحة فى الغالب والسبب العادى لعودتهن إلى أوربا هو رغبتهن فى الحصول على الرعاية الطبية فيها. ومع هذا فهناك حالات تؤيد رغبة البريطانيات فى الولادة على السفن الراسية فى الموانى لكى يولد أطفالهن فى «أرض» بريطانية.

ويبدو أن هذا الرأى لم يكن مستساغا أو مقبولا لدى الرأى العام العالمى. وقد أردت أن أفسر فى الفصل السابق عدم اندماج جماعة البيض فى الوطنيين من حيث أنه نوع من المصاهرة بين الجنسين. وفى الفصل الرابع تفسير لبقاء البيض دون اختلاط بأنه مبنى على الحاجة إلى الاتحاد التى تشعر بها الأقلية التى تعيش فى بلاد أجنبية.

ومما لحظه "برنز" أن هناك نوعا نمطيا من مقاومة الاستعمار يعم بخاصة البلاد التى توجد بها التفرقة العنصرية وشىء من الاستعمار. وهو يذكر الولايات المتحدة مثلا بين البلاد وقد حكمت جزائر الفلبين وهاواى ولاتزال تحكم جوام Guam وبورتوريكو Porto Rico والفرق ضئيل بين موقف البريطانيين إزاء سنغافورة وموقف الأمريكان إزاء منطقة قناة بنما. ويرى "برنز" أن الاستعمارالروسى يخفيه عن الملاحظة أن دائرة نفوذه تمتد إلى البلاد المجاورة لروسيا فى أوربا وآسيا. والدعوى الكاذبة التى تقرر أن مياه المحيط الملحة ليست حاجزا ماديا بين البلد الأم والمستعمرات فحسب بل هى أيضا حاجز معنوى يغشى سائر أشكال الاستعمار والغلبة والتوسع كستار من دخان.

وعلى هذا الأساس كان من رأى "برنز" أن لا يعد أحد سكان "فلاديفستك" روسيا إلا كما يعد الهندى إنجليزيا. ومع هذا فالفاصل اللونى يفصل الأخيرين أحدهما عن الآخر ولا يفصل بين الأولين. ومؤلفات "برنز" عظيمة الأهمية ولكن فيها أحيانا ما يدل على قصر النظر. كتب سنة ١٩٤٨ قال : «إن سكان البلاد الكثيرة التابعة لنا يقدرون مزايا حكمنا لهم. ولا يرضيهم أن يستبدلوا به حكما آخر ويرضون الاستقلال منه بديلا. فما على الإنسان إلا أن يوجه نظره نحو غانا التى كان هو نفسه حاكما عليها، إن رئيس حكومتها الذى غير اسمها نفسه فى أقل من عشرة أعوام أشار إلى هذه المزايا باعتبارها تغطية للاستغلال الاقتصادى. والطريقة التى غيرت بريطانيا بها سياستها تتضح من حكمين صدرا فى مدى عشرين عاما».

ففى سنة ١٩٤٩ قال "جودفرى هجنز" Godfrey Huggins فى معرض الحديث عن روديسيا «سيكون الرجل الأسود فى المنطقة الأوربية موضع ترحيب بوصفه عاملا على أن يكون مفهوما أنه لايتعدى أن يكون معينا لا منافسا للرجل الأبيض».

وبعد عشر سنوات فسر "ماكميلان" وجهة النظر البريطانية فى "كيب تون" بما يلى :

(إن «عواصف التغيير» أخذت تهب فى أنحاء أفريقية. وسواء رضينا أو لم نرض يجب أن نعترف بالواقع؛ أن ماناراه نحن البريطانيين صوابا أو خطأ فإنما نستمد من الحكم تجارب الفشل والنجاح فى إدارة الشؤون. وأن هدفنا هو خلق مجتمع تحترم فيه حقوق الفرد- مجتمع يكون أساس تقدم الإنسان فيه سياسيا واقتصاديا هو عمله وكفايته. إنا نرفض فكرة تفوق شعب على آخر تفوقا مبنيا على صفات طبيعية فيه. وعلى هذا فسياستنا ليست مبنية على التفرقة العنصرية). ثم قال وهو يتحدث عن جنوب أفريقية «إن بعض جوانب سياستكم تجعل من المستحيل أن تهب جنوب أفريقية عوننا وتشجيعنا دون أن نكون مناقضين لعقيدتنا العميقة فى حرية الإنسان التى تعمل فى بلادنا على إقامة صرحها.

نظام الولايات المتحدة :

لا يزال النظام البريطانى البروتستانتى يسود فى الولايات المتحدة وفى جزائر الهند الغربية التى كان يحكمها البريطانيون والهولنديون أبان الحكم الاستعمارى. أما فى أمريكا الجنوبية بسبب النفوذ الإسبانى الكاثوليكى فليس فيها فاصل اللون. ويشعر كل فرد فى أمريكا الجنوبية أقل سوادا أنه متفوق بعض الشىء على مواطنيه الذين هم أكثر ميلا إلى السواد .

وفى الولايات المتحدة يعد مكتب الإحصاء زنجيا كل فرد أحد جدوده من الزنوج ولو لم يبد من ملامحه الظاهرة أنه من غير البيض الخالصين. وعلى هذا فكل الأجناس المختلطة على اختلاف درجة هذا الاختلاط تعد فى الولايات المتحدة زنوجا. مع إغفال نسبة الدماء الزنجية فيه. وإنه لمتفق مع المنطق أيضا أن نعد كل مختلط النسب أبيض «مهما قلت نسبة الدم الأبيض فيه» وهذا القول الأخير هو أحد الشعارات التى كثيرا

ما تسمع فى البرازيل[1]. وعلى هذا فمنطق مكتب الاحصاء فى الولايات المتحدة يستطيع أن يعد كل رجل مختلط النسب أبيض ولكن ليس لأى زنجى حقوق مماثلة فى الولايات الجنوبية. وكان من أغراض قانون الحقوق المدنية الذى أصدره "أيزنهاور" سنة ١٩٥٧ أن يحدث بعض الإصلاح فى هذا الموضوع. ويوجد الآن قانون عام أريد به إنهاء التفرقة العنصرية فى جميع الولايات. وفى كثير من البلاد لم تعد هذه العبارة «للبيض وحدهم» تستعمل فى الإعلانات. وحل محلها «نحن جميعا أمريكيون». والمعاملة الظالمة للعمال بسبب عنصرهم يعاقب مرتكبها. ولكن تصفية المسألة العنصرية فى الولايات المتحدة لا تزال بعيدة المنال.

النظام الفرنسى :

إن هدف هذا النظام هو الاندماج بين البيض والسود «الأخوة» وكل سكان الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار مواطنون فرنسيون[2]. وكل مختلط النسب (هجين) يعد أبيض كلما أمكن ذلك ولا يعد عادة من السود. وهذا النظام الذى يقتضى الاندماج نظام مثالى (كل الناس أخوة) بينما الاندماج فى "الكومنولث" البريطانى واقعى (كل الشعوب إخوة).

ومع هذا فقد ظهر بمرور الزمن أن هذا النظام الفرنسى فيه رياء إذ من السهل أن تدعو إنسانا بأن تقول له يا «بنى» وليس من اليسير أن تقبله صهرا لك. إن

(١) تضع إدارة الاحصاء فى الولايات المتحدة المولدين من غير البيض فى جنسية آبائهم باستثناء المولدين من الزنوج والهنود الحمر فانها تعدهم من الزنوج.

(٢) تشمل فرنسا فيما وراء البحار الممتلكات الفرنسية فى أفريقية وأمريكا الجنوبية والبلاد التى تحت الوصاية. ومع أن الجزائريين يعدون مواطنين فرنسيين (قبل استقلال الجزائر) فهم إما مواطنون فرنسيون أو «محليون»، هذا وقد حصل بعض الأقاليم الأفريقية على الحكم الذاتى بناء على قانون سنة ١٩٣٦ وفى الجمهورية الفرنسية الفدرالية الحديثة حصلت الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار على «المساواة» مع فرنسا. ولها صوتها فى اختيار رئيس الجمهورية الفرنسية .

التناقض فى هذا النظام سيبين فى القسم التالى. ويجب أن يذكر هنا أن الأفريقيين يعاملون فى فرنسا معاملة أكرم من معاملة العرب مما يدل على أن اللون ليس هو وحده أساس العلاقة بين الناس.

النظام الآيبيرى Iberian :

هذا النظام مبنى أيضا على الاندماج. ففى الولايات المتحدة البرتغالية فيما وراء البحار مثل أنجولا وموزمبيق لاتوجد تفرقة عنصرية رسمية ولكن يوجد مع ذلك شيء من التفرقة المترتبة على اللون تصاحب مستويات التعليم والمستويات الاجتماعية المختلفة. وهذا للتفرقة بين الوطنيين الأصليين أنفسهم الذين يكلفون مايشبه أعمال السخرة. ومن الوطنيين المتعلمين ذوى البشرة السمراء والأفريقيين الذين هم أقل من هؤلاء سمرة ويسمون "المسترو" Mistro. وهؤلاء يعدون عادة من البيض.

وفى غينيا وموزمبيق وأنجولا يعد الأفريقيون الذين لم يندمجوا فى التعليم واللغة والعادات من الصنف الأول. وهناك نظام يسمح بانتقال هؤلاء إلى مصاف المواطن البرتغالى إذا ما تعلم اللغة البرتغالية، وكان حسن السلوك وقام بالخدمة العسكرية ويتضح من ذلك أن الفاصل اللونى له علاقة كبيرة بالفاصل الطبقى. ونظام "الامتصاص" Assimilado الذى يبدو فى ظاهره نظاما يستحق التقدير يراه أحد كتاب روديسيا أنه «يصيب القومية الأفريقية فى الصميم. فهذه السياسة تقتل الروح الأفريقية فى الأفريقى. وتستبدل بها الروح البرتغالية.

وإذ يقبل البرتغاليون الأفريقى المندمج فيهم فإنهم لا يقبلون أفريقيا وإنما يقبلون البرتغالى الذى لقحوه به. فهذا النظام لم يقبل الأفريقى كما هو، وهو يود أن يبقى أفريقيًا لا يتغير. وهذا النظام أشبه شيء بالنظام البلجيكى والنظام الفرنسى فى الاندماج وليس لدينا عن إسبانيا إلا كلمة موجزة فقد تركت عدة قرون من الاحتلال المغربى أثرها فى الأهالى الإسبانيين وبخاصة فى الجنوب. ولا تزال تعد إسبانيا الدولة

الأم للمستعمرات الإسبانية السابقة فى اللغة والثقافة وقد مكّن اتحاد اللغة آلافا من سكان أمريكا الجنوبية من الدرس فى جامعات مدريد.

النظام البلجيكى :

كان هذا مخالفا للنظام الفرنسى والأيبيرى ولم يكن أهل الكونجو وطلاب العلم بخاصة يشجعون على ترك بلادهم[١]. والسبب الذى يعزى إليه هذا؛ أن من هؤلاء الذين يتعلمون فى الخارج ينشأ القوميون[٢]. وستتضح صحة ذلك فى آخر هذا الفصل الذى نتكلم فيه عن موقف غير البيض فى مجتمع من البيض. والتاريخ الحديث قد برهن أن حبس المواطنين فيما وراء البحار فى بلادهم لم يحل دون التطور ومحاولة الحصول على الاستقلال.

وفى الكونغو لم يكن لفاصل اللون أساس قانونى. ولكن كان هناك الفارق الاجتماعى[٣]، وكان مختلطو النسب يعدون تارة من البيض وطورا من الأفريقيين. وقد صرح الملك بودوان فى إحدى النشرات التى أصدرت فى المعرض العام فى

(١) كان فى الكونغو التى كانت تابعة لبلجيكا جامعتان وسبعة وعشرون ألف مدرسة وحوالى خمسمائة مركز تديرها البعثات الكاثوليكية ومائتان وسبعون مركزا يديرها البروتستانت. وكان يصدر بها حوالى ٢٥٠ صحيفة ومجلة منها مائة باللسان الوطنى.

(٢) عند استقلال الكونغو فى عام ١٩٦١ لم يكن فى كل جامعة لوفانيوم إلا ٢٤٧ طالبا ليس منهم متخرج واحد. ولم يكن من كل رواندا أورندى سوى سبعة عشر طالبا جامعيا. ولم يكن يزيد مجموع الطلاب الذين تلقوا دراسة ثانوية – فى كل الكونغو – عن خمسة وعشرين ألفًا، بينما المجموع الكلى للسكان نحو ثلاثة عشر مليونًا أى أقل من ٢٪. وبهذا كان التحكم فى التعليم من ناحيتى الكم والكيف. يراجع.
Hennessey, M.N. : Congor Pall Mall, London, 1961

(٣) كانت هناك فى الكونغو جوانب من التفرقة العنصرية تنظمها القوانين. كان القانون ينص على أن يسكن الملونون أحياء خاصة بهم Cités Africanies وهذه غير أحياء خاصة للأوربيين Quartiers, Européens يراجع فى هذا المجلة الاقتصادية الأفريقية التى تصدرها هيئة الأمم المتحدة. فى المقال التالى Leopold-ville and Lagos Economic Bulletin for Africa Vol.1,No. 2 P.51JJune 1951 المراجع

بروكسل أن أهم مسائل المستعمرة هى العلاقة بين السود والبيض. والنظام البلجيكى من الناحية الرسمية لم يكن يهدف لا إلى التفرقة ولا إلى الاندماج وكلا الأمرين لم يقم الدليل على أنهما موضع رضى فى جنوب أفريقية أو فى أفريقية الشمالية الفرنسية. وقد ذكر البيان الكونغولى فى سنة ١٩٥٦ أن الوسيلة الوحيدة للتعاون الحقيقى بين البيض والسود هى فى الاحترام المتبادل والصداقة الصحيحة. وفى نفس السنة أذاع وفد الكونغو التصريح التالى : «نحن فى حاجة إلى المدنية الغربية ولكن لا شأن لنا بالجانب القبيح من المدنية الغربية ونحتج على خلق النزاع الطبقى. ونحن راغبون لا فى علاقات السلام بيننا وبين البلجيكيين فحسب بل فى العلاقة التى تقوم على الصداقة» وكل تفرقة عنصرية ألغيت فى جميع المجالس المحلية والمكاتب الحكومية سنة ١٩٥٧ وصدر مرسوم يقضى بعقوبة كل من يدعو إلى الكره العنصرى ولم يكن هذا حلا للمسألة. فعندما رحل البلجيكيون عن الكونغو قامت فيها الثورة الجامحة وأعلنت فيها أفراح الحرية. لقد صارت الكونغو مستقلة ولكن الذين يزعمون أن الاستقلال مقرون بالتقدم خاب أملهم فى تطور سريع.

النظام الهولندى :

لم يصدر فى إندونيسيا قانون يدعو إلى الاندماج كما حدث فى الممتلكات البرتغالية فيما وراء البحار. وظل الإندونيسيون محتفظين بصفتهم السياسية والأطفال الهولنديون الشرعيون المولودون فى إندونيسيا وحدهم يعدون من الرعية الهولندية. واختلاف اللغة فى الممتلكات الهولندية السابقة ذات أهمية خاصة. فهى تكاد أن تكون فريدة فى تاريخ الاستعمار. فلم يكن الأمر مقصورا على عدم بذل أية محاولة لتعليم اللغة الهولندية.بل كان كل إندونيسى يخاطب سيده - دع عنك سيدته - باللغة الهولندية يعد مذنبا. وهذا الفاصل كان أساسا لوجود فارق طبقى. نظرا للسماح للوطنيين من الطبقة المتوسطة بالتكلم بالهولندية. وعندما نستعرض التاريخ القريب نجد

أن هذه السياسة كانت أشبه شيء بذلك السلاح الذى يرتد للصائد بعد أن يرمى به. فإن اللغة قلما تصل إلى الوطنيين وقد لحظ "بانيكار" Panikar فى مؤلفه المسمى «آسيا والسيادة الغربية» أن علاقة المستعمرين المادية بالإندونيسيين هى التى أنقذت بلادهم فى آخر الأمر.

وفى سورينام والأنتيل الهولندية كان النظام المتبع مبنيا على الاندماج. لقد كان كل وطنى يعد رعية هولندية. وفى سورينام بخاصة عم استعمال اللغة الهولندية ورسخت قدمها. وكان سبب هذا قلة السكان من جهة، وثانيا لاتباع نظام للتفرقة مخالف لما اتبع فى جزائر الهند الشرقية السابقة. وفى سورينام لم يكن المتعلمون يميلون إلى استعمال لغتهم. وكان استعمال اللغة الوطنية ممنوعا فى المدارس وقد استبدل بها اللغة الهولندية. وفى جزائر الأنتيل كانت كثرة التجارة مع الجزائر الإسبانية والبريطانية المجاورة وفنزويلا مما عاق انتشار اللغة الهولندية. وكانت اللغة الدارجة هى الإسبانية .

النظام اليابانى :

عندما خضعت أجزاء كبيرة من الجنوب الشرقى لآسيا للاحتلال اليابانى إبان الحرب العالمية الثانية كانت هناك ظروف ظاهرة منعت وجود فاصل اللون فيها. ولما كانت اليابان العظمى هى كبرى البلاد الآسيوية الحرة ورائدتها كان عليها أن تكتسب ود الآسيويين وتضعف فى نفس الوقت نفوذ الرجل الأبيض. وإذ اتخذت اليابان هذا شعارا لها فقد ألغت فاصل اللون القديم بين المستعمرين وأهل البلاد بعطف كبير وفتحت على مصاريعها النوادى والفنادق وما إليها للوطنيين بعد أن كانت محرمة عليهم وقد تطور هذا إلى ثورة ضد سيادة البيض بل جعل سواد الشعب فى ثورة ضد طبقتى البيض العليا والمتوسطة اللتين كانتا مكونتين فى الغالب من العناصر المختلطة. وكانت عقيدة اليابانيين غير الخفية بأنهم هم المحررون لهذه الشعوب وأنهم شعب

مختار - كانت آية صغيرة ولكنها كافية للتفرقة. ويكفى أن نقارن مسلك اليابانيين فى كوريا وفورموزا وتايوان فى العهد الماضى، وفوق ذلك كانت سياسة اليابان هى الاندماج السريع فى كل المناطق التى كانوا يرون أنها متخلفة. ومن الأوامر التى تدل على هذه الروح إلزام كل فرد أن يسمى باسم يابانى، ولم تنجح هذه الإجراءات إلا فى خلق كثير من الحركات الوطنية الآسيوية الصميمة.

وعلى الجملة لم تقدم اليابان لمن حكمتهم من الشعوب تلك الفترة القصيرة ما يحمدونها عليه إلا القليل[١].

النظام السوفيتى :

لم يكن من المنتظر - لأسباب واضحة - أن يجد الإنسان فاصل اللون فى الاتحاد السوفيتى. فالاشتراكية تعرض كأنها أسمى مراتب المساواة والإخاء وهدف الماركسية هو إلغاء أو على الأصح رفع طبقة البروليتاريا التى تتميز بلونها فى كثير من البلاد، وفوق ذلك فإن الدولة التى تدين بوجودها إلى محاربة الترفع على الطبقة المعدمة التى كان تعدادها يبلغ الملايين لجدير بها أن تتجنب إقامة فاصل اللون[٢]. ولكن لأسباب سياسية أوجد فيها اللياقة اللونية[٣]. ويبدو أن هذا أكثر أهمية نظراً إلى أن حوالى ربع سكان الاتحاد السوفيتى من غير البيض وأن بها حوالى ٢٠ مليون مسلم.

(١) داى نيبون Dai Nippon أكبر جزائر اليابان سميت بعد الحرب العالمية الثانية نيبون كوكو Nippon Koku أو أرض بيبول.

(٢) مما كتب جنتر Gunther أن الرقيق فى روسيا القديمة حيث الشعوب المحكومة لم تكن إلا بمثابة الممتلكات التى شرعها الدين ولم تكن منزلتهم تختلف عن الزنوج فى أمريكا. وكان الرقيق فى روسيا مع هذا يتجاوز عددهم الزنوج فى الولايات المتحدة ونظرا إلى وجودهم فى جميع أنحاء البلاد كان لهم أهمية اقتصادية أكبر من هؤلاء.

(٣) قارن نداء الثورة الروسية : ياشعوب العالم المضطهدة اقضوا على هذه الآراء القديمة، وانتبهوا يا من ولدتهم أمهاتهم فى ظل العبودية، لن نعيش بعد اليوم وفق إرادة الغير، أيها الرفاق استمعوا إلى صوت المساواة.

ومن رأى "ولتر كولارز" Walter Kolarz أن روسيا تطبق فى مبدأ الأمر خط الأخ الكبير فى الأقاليم الجديدة ثم تأخذ فى حرمانها من كل شيء حتى أسماء البلاد من ذكرياتها القومية، وهو يوازن «مبدأ الأخ الكبير» الذى لدى الروس بموقف الصين إزاء برما والتبت وموقف هولندا من إندونيسيا واليابان من سائر آسيا، على أن الأولى كانت أكثر نجاحا. ويعبر هذا المبدأ عن نفسه - فيما وراء البحار - فيما يطلق عليه حلف شمال الأطلنطى .N.A.T.C «الزحف الشيوعى» فمنظمات مجلس تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية، والاتحاد العام لعمال أفريقية السوداء تقدم عونا ثقافيا للدول النامية مثل الذى تقدمه مجالس وبعثات الأمم المتحدة.

نظام جنوب أفريقية :

فى جنوب أفريقية يسود نظام العزل الاجتماعى الدقيق "الأبرتهيد"، ويقصد به التنمية الذاتية و«التوالد الذاتى» ولكن العزل يعنى التفرقة من حيث تعريفها. ويمنع قانون اللا أخلاقيات Immorality Amendment الصادر سنة ١٩٥٠ الزواج والاتصال الجنسى بين البيض والسود(١). وقد أعلن الجنرال "سمطس" Smuts أن التمييز بين الأجناس إجبارى وقال "مالان" Malan أن العزلة إحدى تقاليد جنوب أفريقية.

وكل من يعارض هذا التقليد أو يتردد فى المساهمة فى تنفيذه يعد مرتكبا جريمة الخيانة. وفى جمهورية جنوب أفريقية تعتبر ولاية الرأس أكثر الولايات تساهلا فى تطبيق الحاجز اللونى. ومع هذا فإن عليها أن تكون خارجة على مايتبع فى سائر أنحاء الاتحاد. ويعتبر ملونو الرأى من غير البيض.

ومسألة العزلة يعالجها مكتب جنوب أفريقية للشئون العنصرية. وقد أصدر

---

(١) ينبغى أن يميز بين الأفريقى African وبين الأفريكانى Afrikaaner الذى أطلقه بيض جنوب أفريقية على أنفسهم باعتبار أفريقية وطنهم وتمييزا لأنفسهم عن السود. (المراجع)

"توملنسن" Tomlinson تقريرا فى هذا الموضوع سنة ١٩٥٦ . وهو ينصح أن يكون تقدم البيض بمعزل عن السود والصعوبة - مع ذلك - هى من أن السود متفوقون فى العدد بينما البيض هم الأقلية المتحكمة. وهذا ليس غريبا فى المستعمرات عادة. ولكن فى جنوب أفريقية أمر له أهمية خاصة وهو أن البيض فيها ليس لهم وطن أصلى - أى ليس لهم وطن «أم» ولهذا السبب جاء فى إجابة "فرفورد" Verwoerd إلى "ماكملان" أن المسألة العنصرية فى جنوب أفريقية لاتتضمن خصومة الأفريقى فحسب. وإذا ما ذكر الإنسان العدالة يجب أن يذكر العدالة للرجل الأبيض كذلك.

ويرى "هورنليه" Hoernlé أن الوحدة العنصرية تتم عن طريق الاندماج الثقافى والاقتصادى بعد أن يتم للجماعة اندماج اجتماعى وسياسى وحيوى، وأكثر ما يخاف هو النوع الأخير لأنه يهدد بقاء الرجل الأبيض فإن عدد السود ثلاثة أضعاف عدد البيض، ولذلك فإن الخطوة الأولى للاندماج تقابل بحذر شديد.

أما من حيث حقوق البوير فى أفريقية الجنوبية فمن المسلم به أنهم هم الذين أنقذوا البلاد من قبائل الشاكا والدنجان Chaka & Dingaan الذين وفدوا من بلاد بعيدة وقد قتلوا فى غزوهم جنوب أفريقية ما يبلغ مليون نسمة من البانتو Bantu ومع هذا فكثيرا مايذاع أنه ليس للأفريقيين حقوق فى هذه المنطقة. وهذا الرأى قد يكون منطبقا كذلك على الأمريكتين وفى أستراليا وعلى الهنود الآريين فى الهند[١]. ومع كل فالمسألة فى مستقبل الأيام أكثر أهمية منها فى الماضى أو حتى فى الوقت الحاضر فحقوق الأولوية لا قيمة لها بالإضافة إلى العلاقة بين الجماعات المختلفة. فنسبة السود إلى البيض أو ما يطلق عليه معامل اللون الديموجرافى Demographic Pigment Cofficient التى كانت كالنسبة بين ٤ و ١ سنة ١٩٠٤ فهى بعدما لا يتجاوز نصف قرن كالنسبة بين ١١ و ٣ ولو أن المعادلة الأخيرة يمكن أن تختصر إلى ٤ و ١ فإن المهم هو الفرق

(١) من الغريب أن يطلق الكاتب هذا الرأى مع هذا التحفظ البسيط مع أن حق كل فرد مكفول فى موطنه. ومسألة قدم الأفريقيين فى جنوب أفريقية دافع عنها أكثر من كاتب. يراجع فى هذا الفصل الأول من كتاب Peoples & Policies of South Africa. 1960 (المراجع).

العددى وهو الذى يعتد به. ففى سنة ١٩٠٤ كان البيض حوالى مليون نسمة والسود ٤ ملايين فى جنوب أفريقية فقفز العدد إلى ٣ ملايين من البيض و١٢ مليونًا من السود سنة ١٩٦٠[١].

وزيادة على هذه المصاعب العنصرية يوجد فى جنوب أفريقية المنافسة الشديدة بين الأفريقيين الأقوياء من الناحية السياسية والبريطانيين ذوى النفوذ الاقتصادى القوى. كما يوجد بها الخلافات الدينية كذلك، ويبلغ الكاثوليك ٥٪ والبروتستانت ٦٠٪ وهؤلاء منقسمون إلى فرق ومذاهب لا عد لها.

وفى سنة ١٩٦٠ بلغت هذه المسألة حدا مخيفا يوم أحرق الأفريقيون تصريحات المرور التى يلزم بها القانون. إذ عدوها شارة للتفرقة العنصرية وهذه التصريحات هى فى الواقع تفيد فى تعيين أهل البلاد من آلاف غيرهم يريدون اجتياز الحدود، وليست هذه التصريحات مما يلزم استعمالها لدى البيض لأنهم لا يقدمون إلا من طريق البحر أو الجو وتبحث جوازاتهم فى الميناء، ومشكلة التصريحات يجب أن تعد مقياسًا للحالة العامة؛ حيث إن البيض لسوء الحظ لا يرضيهم أن يصيب الأفريقيون أى تقدم[٢].

أمريكا الجنوبية :

لم تنشأ فى أمريكا الجنوبية مسألة الاندماج نظرا إلى أن ما يسمى بالجماعة الأصلية التى يتولد منها الملونون قد أصبحت فى منزلة ثانوية والجماعات المتوسطة

(١) البيض ٣ ملايين والوطنيون تسعة ملايين ونصف والملونون فى مستعمرة الرأس مليون والآسيويون ٨٠٠.٠٠٠

(٢) فى جنوب أفريقية يلتزم كل أفريقى بحمل التصريح وهو غير مقتصر على الوافدين فقط؛ وأدى هذا إلى وقوع الأفريقيين فى كثير من المخالفات القانونية مما فتح المجال أمام القبض الجماعى على الأفريقيين إذ كانت الحكومة تريد أن تمد بعض المزارع الأوربية باليد العاملة. ذلك لأن الحكومة هناك تعتبر مجرد القبض على الأفريقى اتهاما، والمتهم يخير بين السجن والعمل فى مزرعة أوربية. (المراجع)

التى نشأت عنها أصبحت هى جنسا له كيان خاص. له مع ذلك «شعر خاص» أو «حاجز ظل» Shade bar وسنعود إلى هذا الموضوع ثانية فى الفصل الرابع.

مدى انتشار فاصل اللون وأسس الأجلوم والشوكى Ogloum chokei

رأينا من قبل أن فاصل اللون قد يسير فى بلاد كثيرة ضد البيض: حيث يتحرك ضد البيض تاركا مجالا أوسع للسود. والعلاقة بين تحرير السود المستمر وبين نمو الحاجز اللونى يمكن ملاحظتها بعد إلغاء الرق مباشرة حينما انمحى كل نفوذ للجماعات البشرية فى الجانب الأسود من الحاجز اللونى. ومع هذا فعند انتهاء الرق أوشكت أيام عجز السود على الانتهاء، ورغما من هذا؛ أى مع عدم وجود الرق ابتدعت عدة وسائل لإجبار الشعوب المحكومة على تأدية خدمات بلا مقابل، وعلى مر الوقت كانت الأجور تؤدى لما يقوم به العمال من الخدمات التى كانت تفرض عليهم فرضا وكانت العقوبات توقع على كل من يمتنع عن تأديتها. وإذا كان هناك نقص فى العمال كان العمال يجلبون من البلاد الأخرى التى قد تكون على بعد شاسع فى بعض الأحيان. وبعد تحرير الرقيق الزنوج فى أمريكا الجنوبية مثلا ظهر الصينيون والإندونيسيون فى منطقة البحر الكاريبى حيث هجر الزنوج المزارع[١]. وأمكن الحصول على العمال من طريق الرق أو بدفع الأجور. وكان من الآثار الباقية للرق الالتزام الذى يؤدى بمقتضاه بعض المناطق العمال اللازمين وعلى هذا أمكن الحصول على العمال بطريق الرغبة على أن يحصلوا على أجورهم بإشراف رؤساء العمل من البيض. ومن الأساليب التى كانت متبعة نظام حصول إحدى المناطق على الأجر مقدما فى مقابل تقديم العمال اللازمين (Neo-Peonage) ولقد تطور النظام من علاقة الرقيق بسيده إلى نظام الخادم إلى سيده، ثم إلى فكرة الأخ الأكبر وتطبق فى بعض البلاد[٢].

(١) يطلق لفظ الطائر الأسود Black Bird على الزنجى الرقيق.

(٢) هذه المعاملة - معاملة الأخ الأكبر للأخ الأصغر - توجد أيضا فى أوساط خالية من علاقة البيض بغير البيض. فهى واضحة فى معاملة أهل جاوه لسكان سائر الجزائر الإندونيسية بما فيها سومطرة نفسها.

وكانت إحدى نتائج حاجز اللون أنها جعلت لون البشرة هو العامل المهم فى تقرير وضع الفرد، ولم تكن النتيجة المنطقية لهذا ماقيل بأن الشعوب التى تقهر من السود فحسب بل إن الشعوب السوداء هى التى تقهر.

وهاتان العبارتان صحيحتان إلى حد كبير ولكن هذا لايؤثر على أن لكل منها معنى مغايرا للأخرى، وكان هذا الإيهام سببا فى استحالة خروج الملونين عن السلطان الأعلى للسادة الحاكمين. ونظرا إلى أن هؤلاء كانوا عادة من البيض فقد كان هناك تدرج فى اللون حسب الوظائف التى كانت فى المستعمرات، حتى الحكم غير المباشر كان يضطلع به الموظفون على طريقة (الساندوتش) إذ كانت السلطة العليا فى يد البيض ثم يجىء الملونون فى الوظائف التى تلى وظائف هؤلاء. ثم تجىء طبقة من الموظفين البيض ثم الطبقة الأخيرة الدنيا من الملونين الذين يكونون عادة أشد سمرة من «الطبقة» الثانية.

حاجز اللون فى عالم البيض :

إن أى وصف للجانب الجغرافى لحاجز اللون لا يكمل مالم يبحث الموقف فى أوربا ولو أنها هى القارة التى من المفروض خلوها من مشكلة اللون. ولا يخفى أنه فى أوربا كغيرها من أنحاء العالم تختلف تفاصيل حاجز اللون من بلد إلى بلد ولكن يكفى هنا أن تذكر الصفات العامة لحاجز اللون فيها.

ولقد وفد إلى أوربا حتى قبل الحرب العالمية الأولى عدد من المهاجرين غير البيض ولكن وجودهم بين مجتمع البيض لم ينشأ عنه أية مشكلة، بل ظل الأمر غير ملفت للنظر أو لم يقابل بما يستحق من الاهتمام، وزاد عدد من زاروا أوربا بعد الحرب العالمية الأولى زيادة كبيرة، بل شجعت بعض البلاد هذه الزيارات مثل فرنسا والأراضى المنخفضة ولكن الهجرة على مستوى كبير لم تشجع مطلقا. على أن عددا

كبيراً من الجنود السود قدموا إليها بعد الحرب العالمية الثانية[1] ونتج عن ذلك بقاؤهم فى جزء كبير من ألمانيا.

وفى هذه الفترة عينها استقبلت أوربا من غير البيض عددا متزايدا من الطلبة وآلافا ممن سبقت هجرتهم من المستعمرات إلى البلاد التى تتبعها هذه المستعمرات، وكان الاندماج فى مجتمع البيض غاية فى الصعوبة، حتى مع زواج المهاجرين الملونين للنساء البيضاوات، مما يدل على أن أكثر من ٤٠٠ طفل ملون هجرتهم أمهاتهم البيضاوات. (وهذه صورة مقلوبة لما عمل فى المستعمرات السابقة حيث هجر كثير من الآباء البيض أولادهم الملونين قبل ميلادهم). ولهذه الأسباب وخوفا من المتاعب التى تنشأ عن تنبيه الرعايا الملونين فيما وراء البحار صارت مسألة اللون مما يشغل بعض البلاد الأوربية. ولكن مسألة اللون عند هذه البلاد تختلف عنها فى الولايات المتحدة أو فى جنوب أفريقية. لأنها ليست مشكلة تفرقة بل مسألة اندماج على أنه من الواجب أن نقدر أن الملونين فيها أقلية ضئيلة، ومع كل هل تعلمنا من التاريخ أو هل استفدنا من التجارب..؟ ولطالما فشلت محاولات لإدماج الملونين فى مجتمع البيض، بل قد نتج عنها أحيانا عكس المراد منها. وإذا ما اقترن زنجى ببيضاء فقد تم شىء شبيه بالاندماج فى الجيل القادم لو أن مثل هذا يسمى اندماجا، ولا شك أن نوعا من الصداقة قد توطد موهما بأن الاندماج بين الجنسين قد تم. والواقع أن الزواج نفسه لا يخلق الاندماج الصحيح، وكانت النهاية التى لا مفر منها ظهور هذه الحقيقة واضحة. وها هى ذى حادثة والد الزوجة الذى طلب من صهره ألا يكثر من زيارته، بسبب الجيران، وشبيه بهذا ماحدث للزنجى الذى لم يلاق أثر حاجز اللون فى مقاهى أوربا ومطاعمها إلى أن طلبت منه المقاهى يوما ألا يتردد عليها فى فصل الصيف خشية شكوى السائحين الأمريكيين، وهذا قد دعا كثيرا من الملونين إلى كره المدنية الغربية لا حبها وتقديرها.

---

(١) كانت إقامتهم مختلفة عن تلك الإقامة القصيرة بعد الحرب العالمية الأولى.

وفى مثل هذه الظروف لا يكون للإقامة فى أوربا أى غرض ذى فائدة. ولعل مثل هذه الأحداث التى يسميها "توينبى" «دافع الضغط» هى التى كان لها أثر كبير فى كبار المجاهدين ضد الاستعمار وفى كبار القوميين فى هذا القرن.

ويرى "دى فرايز" De Vries «أن أشد لطمة يقشعر لها بدن الطالب الملون أن يسمع ويرى العبارات الدالة على التفرقة توجه إلى من عاشوا فى أحضان المدنية الغربية وعجزوا عن أن يحصلوا على ما كانوا يعدونه يوم رحيلهم مفتاح القوة والعزة والكرامة»، ومن رأى المؤلف أن هذا صحيح ولكن هذا الرجل الملون الذى عاد إلى وطنه لا يلبث أن يجد المكان اللائق فى بلاده، ولكن الصعوبة فى اللطمة التى أصابت الطالب عندما كان فى البلد الأم. وليس أثرها شعورا مؤقتا بخيبة الأمل بل سيكون أثرها الشعور بالإهانة التى تتطلب الانتقام، وقد تكون الإهانة مما لا يكاد يدخل فى هذا الباب ولكن الرجل الملون الذى لا يجد فى أوربا من حسن الضيافة إلا مظاهرها الكاذبة يحس بهذه الإهانة. وهو ملاق فيها - على حد تعبير "جنتر" Gunther الإخاء دون المساواة. ولقد أشرنا من قبل إلى حادثة الرجل الذى عبر عن تمييز اللون لدى صهره، وشبيه بها حادث الشاب الزنجى الذى استقبلته أسرة من البيض بالترحاب حتى إذا طلب الإصهار إليهم - أصيبوا بالذعر والاضطراب الشديد.

وقد يدعو توالى عبارات التمييز إلى حالة من التوتر الشديد مما قد يحدث عنه انفجار فى النهاية. إنى أسوق لهذا مثلا فتاة زنجية عاملة بأحد المصانع أحست بالدافع إلى أن تضرب ضربتها. فقد كانت عاجزة عن أى اتصال حقيقى بأحد فى المصنع وكان يؤلمها ما تسمعه من الألقاب الدالة على الزراية بها فقد بلغ بها التأثر أن تملكتها الرغبة العارمة فى الانتقام فحاولت تسميم جميع العاملين معها. ولن يذكر هذا التصرف دليلا على أن السود «ليسوا أهلا للثقة» إلا جاهل أو خؤون.

فإذا ما نجح الملون فى تحطيم الحواجز العنصرية والاجتماعية وصل إلى المكانة التى يستأثر بها عادة الرجل الأبيض - وعندئذ يصبح الاندماج ميسورا. ومع هذا فهو

اندماج ظاهرى ولو أن من العسير التفرقة بينه وبين الاندماج الحقيقى لأن الكرامة التى يتضمنها مركز الشخص الجديد أو حالته الجديدة ترجح الضعة الناتجة من الأصل العنصرى، ولا يخف هذا الحرج إذا كان الشخص الملون قليل الطموح راضيا بالبقاء فى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها معظم ذوى قرابته. وهذا فى الواقع مناقض للاندماج؛ إذ أنه سعيد بحظوته بمكانة ما فى دائرة ضيقة من مواطنيه فى إطار مجتمع البيض. وحسبه ذاك. هذه الدائرة المحدودة توهم بوجود الاندماج ولكن قد يكون الأمر على عكس ذلك تماما. هذه الحالة يسميها "ويرث" Wirth الاعتزال Secessionism. هى حالة استقلال سياسى وثقافى واجتماعى للأقلية. وهذا الاعتزال أمر نسبى إذا ما طبق على ظروف غير البيض فى أوربا نظرا لصعوبة وجود وحدة ثقافية متماسكة واستحالة الاستقلال السياسى مع الحرمان من حق الانتخاب.

ولقد تكرر القول بأن القادم الحديث يقابل أحيانا بالترحاب لأنه شخص جديد وشخص معروف ولهذا كان ملفتًا للنظر و«الموقف الأجنبى» الذى يقفه الرجل له صلة وثيقة بالبلاد التى قدم منها القادم الجديد. فإذا كان الرجل الأسود قادما من بلاد مستقلة كان فى موقفه من الكرامة ماليس لقادم من إحدى المستعمرات، فهو ليس أحد أفراد المستعمرات فيما وراء البحار بل هو مواطن حر قادم من إقليم حر مستقل، وعلى هذا فلن يكون موضعا للزراية. لن يكون أثر لكره الغريب ولا لحاجز اللون بل سيكون بدلا من ذلك حب الغريب أو شعور بالزمالة لهذا الأجنبى الذى صارت بلاده صنوا للبلد الأم. وعلى أساس هذه الظاهرة تختلف مكانة الأقليات المتعددة اللون فى الأراضى المنخفضة حيث يوجد الأمبونيز Ambonese والأوراسيون وأهالى الأنتيل وسورينام.

والموقف الذى يقفه الناس من الرجل الغريب قد يخلو من «الفتنة» به إذا كان مسلك القادم الجديد غير حميد. وإذا كان هؤلاء السفراء الذين يدعو تصرفهم إلى

النقد ذوى بشرة ملونة فما أيسر أن يعدوا نموذجا لعنصرهم بأكمله، وهذا خطأ وقع فيه كثير من البيض فى المستعمرات.

إن المهاجرين الجدد يفسدون العلاقات العنصرية الطبية إذ يعرضون جميع مواطنيهم إلى أن يعتبروا مثلهم، وهذا ما يدعو الملونين من ذوى المكانة إلى تجنب عشرة أبناء جلدتهم الذين لا يراعون جانب القانون فى مسلكهم كما يدعوهم إلى عدم احترامهم. وفى هذه الحالة لا يقال إنهم يتنكرون لجنسهم.

والآن وقد وصلنا إلى حيث يجب أن ينتهى الموقف العدائى ويبدأ الاندماج تتضح الأسباب التى تحول دون هذا الاندماج. إن فى إمكانها أن تحمل المهاجر أو أى فرد من أفراد الفئة التى ينظر إليها بعين التمييز والتفرقة على أن تسير فى الطريق التى لا تتوقع السير فيها. فلكى يستطيع الحياة فى هذا المجتمع الغريب يجب عليه أن يبحث عن عمل يكسب منه معاشه فى الميادين التى لا يلقى فيها أية مقاومة. فعندما أخرج اليهود من النقابات اضطروا إلى البحث عن الأعمال التى ظلت ميسرة لهم. وبهذا أصبحوا أكبر المشتغلين بأعمال المصارف، وكذلك صار الصينيون من بائعى الفول السودانى أصحاب المطاعم، ووجد الزنوج فى نهاية أمرهم متنفسا لفنهم فى مسارح الترفيه. ويشبه "توينبى" هذا بنمو أحد أعضاء الجسم إذا ما عجز آخر عن أداء مهمته، وهو ما يسميه دافع التعويض imulus of Peralization ويجب التفرقة بين هذا وبين محاولة من يشعر بألم التمييز فى محاولة خدمة مآربه الشخصية بأن ينضم إلى من يهزأ بآلامه وآلام مواطنيه. إن مثل هذا التصرف نراه عندما سئل أحد الزنوج عن سبب مرحه فأجاب بأنه إذا لم يكن مرحا فإن شقاءه يكون مضاعفا.

أنت لا تسمع صراخ قلبى.

لأن فمى يتسع بالضحك.

أنت لا تعرف أنى أموت.

أن أقدامى تمرح فى رقصها.

والملجأ الأخير لمن يرهقهم التمييز الخداع بأن ينتسبوا لغير جنسهم، وهناك حل آخر للمميزين وهو يصدق بصفة خاصة فى البلاد التى يكون الملونون فيها أقلية سياسية؛ وهو يقضى بأن يكون الملون عارفا بمقدار ماتصبو إليه نفسه من آمال وأن يرضى بنصيبه الذى قدر له. ولربما كان من الواضح أنه لا يوجد إنسان يقنع بمثل هذا النصيب ما لم يعتقد أنه أمر مؤقت وأن كل إنسان مهما قل شأنه سيجىء له اليوم الذى ينصف فيه.

والآن أصبح واضحا أنه لا حديث فى الاندماج الكامل بين البيض والسود. حتى بين الجنس الواحد قد يحتاج الغريب أن يندمج فيه إلى جيل كامل. إن "الجريكو"[١] El Greco لم يعتبر إسبانيا إلا بعد موته، ورغما من أن أعماله الفنية مودعة فى المتاحف الإسبانية نماذج للفن الإسبانى فلم يكن يطلق عليه طول حياته إلا «الجريكو» اليونانى.

ولما كان من غير الممكن أن يكون هناك اندماج تام حقيقى فالتعبير بهذا اللفظ يعنى الاندماج السطحى أو الاندماج الجزئى، أو التكيف بالنسبة للظروف ليس غير، وهذا التكيف ضرورى إذا أريد لكرة أن تغير اتجاهها وينقلب الاندماج إلى خلاف يتحول فيه الرجل الملون كارها للبيض. وهذا يحدث أيضا إذا ما حاول الأبيض أن يذكر الملون بأياديه عنده. والتاريخ قد برهن أولا أن العكس هو الصحيح. والأمر الثانى أن فعل الخير يعتمد إلى حد كبير على نفسية الطرفين.

وإذا أريد أن نحدد الاندماج بمعناه الصحيح يجب أن نختار لفظا أنسب لوصف العلاقة بين الأجناس المختلفة، ولربما كان لفظ الأخوة معبرا صالحا للعلاقة بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر. والتحالف أو المشاركة يدلان على اتفاق المصالح ولكن ليس هذا

---

(١) عاش هذا الفنان اليونانى الأصل الإسبانى الإنتاج فى النصف الثانى من القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر. (المراجع)

المهم بل قد يكون فيهما خطر على حسن العلاقات. يقول "ليوبولد سيدار سنجور" Leo-pold Sedar Segnhor على لسان "فروبنيوس" Frobenius لا يمكن بلوغ المثل الأعلى للإنسانية وآداب السلوك إلا إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض بلغة لا تكلف فيها .

وقد يكون في هذا القول غلو في تبسيط المسألة فإن في البلاد التي لاتفرق بين ضمير المخاطب الفرد وضمير جمع المخاطب لم يتم بلوغ المثل الأعلى للإنسانية وآداب السلوك. إن هناك احتمالا واحداً باقيا. يجب أن تكون الصداقة مبنية على المساواة مع حرية الاختيار ومع احترام الشخصية وحمايتها.

الأمم المتحدة :

إن معظم الشعوب وقد أيقظتها تعاليم الديانات الكبرى وعرفت قرب المسافة اليوم بين كل شعب وما يجاوره من الشعوب وأحست بما يهددها من حرب ثالثة واستشعرت الخوف من الدول الحديثة التي تستطيع القضاء على المدنية، قد اتفقت بعد الحرب العالمية الثانية على تنظيم الأمم المتحدة. وكان من أعظم أعمال الأمم المتحدة أن أصدرت إعلان حقوق الإنسان في ديسمبر سنة ١٩٤٨ وقد تقرر به في البندين الأول والثاني أن «كل الناس ولدوا أحرارا ومتساوين في كرامتهم وحقوقهم. إنهم وهبوا العقل والضمير فيجب أن يعامل كل فرد غيره بروح الأخوة دون أي تمييز لا من حيث الجنس ولا اللون ولا اللغة ولا الدين ولا العقيدة السياسية أو غيرها ولا من حيث الأصل الوطني أو الاجتماعي ولا من حيث الغنى أو الميلاد. أو أي أساس آخر»، وبناء على البند السابع تقرر «أن كل الناس سواسية أمام القانون ولهم - دون أية تفرقة - حق في حماية القانون» وليس هذا الهدف في حاجة إلى أي تعليق، فإذا ما تحقق فلا داعي لأن يقرأ أحد هذا الكتاب إلا على أنه معلومات تاريخية.

الفصل الثالث

الكنيسة والمسألة العنصرية
ومن هو قريبى «إنجيل لوقا - ١٠ - ٢٩ -»

ربما يثير دهشة البعض إذا علموا أن هذا الموضوع فيه مجال واسع للبحوث المطولة ولا يمكن أن نكتفى فيه بأن نقول بإيجاز إن الكنيسة عامة والكينسة المسيحية بخاصة تؤمن بالمساواة والأخوة بين كل الناس، وفى أحد الكتب التى نشرتها اليونسكو عام ١٩٥٢ يقول "كونجار" Congar : «لا تقر الكنيسة أية فروق أو أى تمييز بين الأجناس البشرية. إن قوانينها تعارضها وتؤيد الوحدة الكاملة فى الأسرة الإنسانية ومن سوء الحظ قلما راعى ملايين الناس هذه الحكمة وفى بعض الأحيان لم يجعلها كبار رجال الكنيسة هدفا لهم ولم يعتبر الجنس البشرى أسرة واحدة فى جميع الأزمنة، فمن الناس من كان يفسر هذه العبارة تفسيرا خاصا ولا يزال فيهم الآن من يفسرها تفسيره الخاص كذلك».

وفى إحدى نشرات اليونسكو فى المجموعة السابقة عينها[١] يقول "فسرهوفت" Visserhooft : «قد حدث فى بعض عهود تاريخ الكنيسة المسيحية أن أصيبت العقيدة

---

(١) هناك مجموعتان ممتازتان أصدرتهما اليونسكو : الأولى المسألة العنصرية والفكر الحديث والثانية : المسألة العنصرية والعلم الحديث .

وكل منهما تحوى عددا من الكتيبات التى يعرض كل منهما لجانب من جوانب المشكلة وقد طبع اليونسكو المجموعة الثانية فى مجلد واحد صدر عام ١٩٦٠ بعنوان : Le racisme devant al science (المراجع)

الأساسية بوحدة الجنس البشرى بهزة عنيفة بما استحدث فيها من تعاليم ونظريات قضت بنشوء شيء من التراتب فى الأجناس البشرية». ويقرر "كونجار" أن جميع الكتاب الذين درسوا المفاهيم العنصرية العديدة فى التاريخ أجمعوا على أن ينسبوا نشأة التفرقة العنصرية إلى عصر الاستعمار الذى حدث إبان القرن السادس عشر. ومعنى هذا إما أن التفرقة العنصرية والتمييز العنصرى كانا غير معروفين قبل القرن السادس عشر فى البلاد المسيحية وسائر البلاد الأخرى، وإما أننا أمام مسألة قديمة العهد ولكنها لم تطبق إلا فى القرون القليلة المتأخرة على لون البشرة باسم «المسألة العنصرية»، وقبل أن نحل هذه المسألة يجب أن نحدد فى عقولنا تحديدا دقيقا الفرق بين التفرقة العنصرية كما نفهمها من الناحية النظرية وبين التمييز الذى تسببه حالة الحرب، ففى الحالة الثانية توجد - لا شك - علاقة عدائية بين جماعتين كانتا فى نظر كل منهما متساويتين فى الظروف العادية. والتمييز إذا أريد تعريفه فى مثل هذه الحالة أن هو إلا ظاهرة مؤقتة ولا محل له فى هذا الكتاب فنحن نعنى بالتمييز الدائم الذى يوجد فى حالتى الحرب والسلم على السواء وهو الذى يتضمن التمييز المصطنع والعزل والازدراء.

ولما كانت التفرقة تتضمن تمييزا بين ما هو سام وما هو دون ذلك أو بين ما هو طيب وما هو خبيث، يمكن أن نجد أصله فى جنة عدن «لست أنا الخبيث ولكنه هو أو هى»[١] ولعل هذا الشعور بالتمييز هو الذى كان خطيئة الإنسان الأصلية ولو أننا قد نجد تفسيرا حيويا فى الشعور القبلى عند بعض الحيوانات على أساس من الإحساس العشائرى فبعض الطيور مثلا تتآلف فى جماعات حسب ألوان ريشها. وهذه دلالة واضحة بأن هناك فاصلا حيويا (بيولوجيا) وجد قبل العصر التاريخى الذى ساد فيه الاعتقاد أن الإله لابد أن يكون ذكرا لا أنثى، وهى تُعد فى مرتبة أدنى من مرتبة الذكر،

(١) سفر التكوين. الإصحاح الثالث. الآيتان ١٣،١٢ ونص الآيتين «فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت. قال الرب الإله للمرأة ما هذا الذى فعلت؟ فقالت المرأة: الحية عرفتنى فأكلت».

هذا ويميز هنود "الباركارى" Bakari فى البرازيل بين كورا Kura التى تدل على «نحن» «والطيب» وبين كورابا Kuraba التى تدل على هم «والغريب» « والخبيث».



أصدره صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفل

وله القوامة وهو بهذا سيد التكوين ولابد أن يكون هناك تمييز قبل القرن السادس عشر مبنى على لون البشرة، والنظام الهندى يشمل شعوبا تختلف فى ألوان بشرتها من المتزنجين ذوى اللون القاتم إلى اللون الناصع البياض فى الآريين والدرافيديين Dravidians ونظام الطبقات لدى الهنود يقضى عدم لمس البارين Pariahs على أنهم منبوذون، وهذا النظام يرجع تاريخه إلى يوم أخضع الهندوأوربيون الشعوب التى تقطن فيما يجاور نهر السند، وكانوا يرون أنهم المختارون أو النبلاء، والطبقة العليا كانت طبقة الآريين الذى يرون تفوقهم بسبب لون بشرتهم الناصع، هذا ولو أن نظام الطبقات لم تكن البوذية تقره ولا تعترف بأى تمييز أساسه مولد الفرد[1] ويقارن به تصريح الأمم المتحدة أن كل الناس سواسية فى الكرامة والحقوق. فإن النظرية الآرية التى قوامها كفاية الفرد كانت غير منكورة وكان هناك تمييز للطبقة السادسة بين الطيب والخبيث وبين السيد والرقيق.

وفى مصر نذكر أنه كان فيها شعور ضد اليهود قبل عصرنا هذا بوقت طويل وهو ما دعا المصريين إلى قتل كل طفل يلده يهود (ولم ينج من القتل إلا الطفل الذى كان سببا فى إنقاذ شعبه) رغما من أن الجدين الأولين لليهود والمصريين (سام وحام) كانا أخوين - وكذلك "هامان" رئيس وزراء قورش أخذ يذبح اليهود فى أعداد كبيرة قبل أن يقوم بذلك هتلر بمدة.

وكثيرا ما نرى اليهود أنفسهم وهم فريسة هذا الإيذاء يقومون بالتفرقة بينهم وبين غيرهم كما يدل عليه العهد القديم، فإن فكرة «الشعب المختار» لتدل على شعور بالتفوق على الغير ولو أنها قد تكون وسيلة للدعاية يبررون بها رسالتهم وقد لا تعدو أن تكون وسيلة أملتها الضرورة لاسترداد هيبتهم بعد الذى عوملوا به فى مصر، ويبدو أن دعواهم أنهم الشعب المختار كان تاريخها خروج إبراهيم من مصر.[1] لا خروج موسى

---

(١) ولهذا السبب كان على كل من يقبل فى دير بوذى أن يتخذ اسما جديدا.

١ - سفر التكوين إصحاح ١٢

طوابع البريد وعلاقات الشعوب



سورينام



غانـــا

لاحظ وضع الايدى والبلاد التى أصدرت هذه الطوابع



طابع بريد يرى فـيه العلاقـة
الطبيعيـة بين الشعوب ولاحظ
أن الأبيض فى المقدمة



علم سـورينـام الجـديد تمثل
النجوم ألوان السكان البيض
والسود والسمر والصفر

منها[١]. وقال يهوه لإبراهيم[٢]. وأما إسماعيل (وهو ابن إبراهيم من هاجر المصرية) لقد سمعت لك فيه. "ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيم مع إسحق" (سفر التكوين إصحاح ١٧ الآيات ٢٠،٢١) وقال محييا رفقه "فى بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شُعبان شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير" (سفر التكوين الإصحاح ٢٥ الآية ٢٣).

وقال الله لموسى[٣] "وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد.. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب التى حولكم". (سفر اللاويين إصحاح ٢٥ الآيات ٢٩،٤٤).

وليس من المؤكد أن هذه الآيات تعد دليلا قاطعا على أن موقف اليهود كان سببه خوفهم من أصحاب الديانات الوثنية المجاورين لهم. فما على الإنسان إلا أن ينظر إلى إسرائيل الحديثة حتى يجد اليهود البيض الأشكنازيم يعتقدون أنهم أسمى منزلة من اليهود والسفارديم القادمين من الشرق ومن أفريقية[٤] وليس الشعور بأنهم الشعب المختار مقتصرا على اليهود، فإن شعب السادة الآريين Aryan Herrenvolk فى عهد "الرايخ" الألمانى الذين شعارهم النسر المحلق فى عنان السماء أبناء الآلهة وأنباء وطن الرب لهم نفس الفكرة "تنوهيكا" Tenno Heika يعد ابن الله وكانت عبارة «الله معنا» التى هى شعار كثير من الشعوب تعنى الله معنا نحن لا مع غيرنا من الشعوب.

---

(١) سفر الخروج إصحاح ٢٠

(٢) سفرة التكوين إصحاح ١٦ : ٣

(٣) إصحاح ٢٥ أيات ٢٩ ، ٤٤

(٤) الواقع أن اليهود السفارديم قدموا من إسبانيا والبرتغال وهم غير اليهود الذين لم يعيشوا مطلقا فى أوربا.

ويرى "كنث لتل" Kenneth Little أن الإسلام لا يعتبر لون البشرة أساسا للتفرقة وهو يقرر أن الاحترام حق لكل الناس الذين أراد الله أن يخلقهم مختلفى ألوان البشرة[١].

ومع هذا فالمسلمون يفرقون بين المقيمين فى «دار الحرب» والمقيمين فى «دار الإسلام» وبهذا التعبير لا يعنى الإسلام إلا حالة السلام وحالة الحرب فلا أساس إذن للقول بأن هناك تفرقة بين المسلم وغير المسلم.

ويقول "بايران" Payrenne أن الشعوب المقهورة كانت تستعبد من مجتمع المؤمنين، وبهذا يقوم بينهما حاجز، وكان الحرم والأماكن المقدسة لها قداستها، وكان يحرسها خصيان وهم رقيق مجلوبون من البلاد المجاورة. وأما حرية العقيدة التى يوفرها المسلمون لأعدائهم المقورين فمردها إلى الرغبة فى بقاء المجتمع الإسلامى نقيا ولتوفير عدد من الرقيق غير المسلمين[٢] ويرى "ولتر وولبانك" Walter Wallbank أن كثيرا من الهنود دخلوا الإسلام هربا من الجزية التى فيها تمييز وتفرقة لغير المسلمين.

---

(١) يرى المسلمون أن من جرأة المسيحيين أن يشتقوا اسمهم من اسم أحد الرسل معتقدين أنه ابن الله ولذلك لم ير المسلمون أن يسموا أنفسهم بالمحمديين نسبة إلى محمد - المؤلف.

إن المسلمين لم يختاروا لأنفسهم اسما وإنما هذا اسمهم فى القرآن : اقرأ قول الله تعالى : «إن الدين عند الله الإسلام» سورة آل عمران. وقوله « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس» سورة الحج : ٧٨ - المراجع.

(٢) وهكذا نرى أنه بينما يعمل المسيحيون على تنصير أرقائهم ليكفروا عما اقترفوا من أخطاء لا يحاول المسلمون أن يدعوا أرقاءهم إلى الإسلام لأن الاحتفاظ بالرقيق لمسلم لا يرضى عنه الله - المؤلف.

يعلق السيد المراجع فى هذا المقام بالآتى قائلا:

هنا عدة أسس إسلامية يجدر الإشارة إليها:

١ - عموم الدعوة الإسلامية وحض الله المسلمين على دعوة الناس جميعا إلى الإسلام لا فرق بين سيد ومسود. يدل على هذا قول الله تعالى: «قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا» وقوله تعالى : «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين».

وعندما اشتد إقبال الناس على الإسلام فى عهد عمر بن عبد العزيز، وقلت الجزية ذكر الولاة هذا للخليفة فكان رده: لقد بعث الله محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا. إن الإسلام لم يعزل غير المسلمين عن المجتمع الإسلامى بدليل قوله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين». هناك فرق بين نصوص الإسلام نفسها وبين تطبيق المسلمين لها.=

هذه الأمثلة تدل على أن التمييز كان موجودا بكل مكان قبل القرن السادس عشر عندما كان التركيب الآراى الدرافيدى لازال مثاليا ولم يبلغ الإسلام والنصرانية ما بلغاه وقتنا هذا من النظرية العالمية[١].

الحامية :

كانت الفقرات السابقة من هذا الفصل متعلقة بشعوب وقبائل ذات لون واحد وقد وضع أساس حاجز اللون فى العالم الصغير داخل سفينة نوح وكانت خطيئة "حام" ضد تقاليد الجنس السائدة فى القبيلة حينذاك بأن نظر إلى أبيه وهو عارى الجسم[٢] وبهذا حلت عليه اللعنة وقدر عليه أن يكون خادما لإخوته وقد صار الجد الأكبر للشعوب الملونة[٣].

= فأعمال المسلمين ليست حجة على الإسلام وإنما الإسلام هو الحجة عليها، والقول بوجود الخصيان فى الحرم أو الحريم لا نجد له أساسا إسلاميا فالإسلام ينهى عن تغيير خلق الله وعن التشويه، ولم يحدث شىء من هذا فى عصور الإسلام الأولى ولا قال به مذهب معتمد.

٢ - وللأسف خلط المؤلف بين تصرفات بعض المسلمين فى بعض العصور وبين نصوص الإسلام، كما استند إلى آراء ليس لها بالإسلام صلة ويمكن أن نجد هذا الاتجاه واضحا عند المؤلف - رغم أن مقدمة الكتاب كتبها السيد ظفر الله خان - فى حديثه عن اليهود فى فلسطين، فلم يشر أية إشارة إلى ما فعله اليهود بالعرب أصحاب الحق الأول فى فلسطين رغم إشاراته المتعددة إلى ما فعلته النازية باليهود - المراجع.

(١) النظرة العالمية فى الإسلام واضحة فيه من أول الأمر ويكفى أن ننظر فيها إلى قول الله تعالى مخاطبا رسوله: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وكثيرا ما تجد خطاب الله تعالى فى القرآن موجها إلى الناس لا إلى شعب أو عنصر أو جنس مثل قوله تعالى : «قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض» - سورة الأعراف وما يذهب المؤلف إليه من أن كلا من الإسلام والمسيحية أصبح لهما وضع متحرر لا نجد له أساسا فى أصول هذه الأديان الكبرى، بل الأساس هو النظرة العالمية والمساواة بين الناس جميعا - المراجع.

(٢) رؤية عورة أبيه هذه العبارة يجب أن تفهم بمعناها الحرفى بسبب الاعتقاد فى «الحسد»، ولكن هناك من يذهب إلى أن أسطورة "حام" بدأت فى عهد داود، وقد فسرت الحرب التى قهر اليهود فيها الكنعانيين على أنها انتقام إلهى من الشعب الذى اشتهر بالعرى والاختلاط.

(٣) وفى الديانة الهندوكية أن السودرا Sudra المنبوذين خلقهم الخالق ليكونوا عبيدا للبراهما.

ولسنا على يقين من أن "حام" ونسله القريبين قد وصموا كما كانت العادة المتبعة مع المذنبين (قارن ما وصم به قابيل) ومن المسلم به أن السلالة من أبناء حام كانوا أشد سوادا ممن بقوا على قيد الحياة بعد الطوفان وأصبح من اليسير أن نفهم السبب الذى من أجله خلطت الأديان المتأخرة بين الشعوب الملونة والزنوج. وفى كثير من البلاد يعد غير البيض إما مهجنين أو زنوجا، وفى بعض الأحيان يعد كل أهل الملايو والإندونيسيين والزنوج جميعا من السود وهكذا يتضح سبب الخلط بين الأفريقيين من شرق القارة والأفريقيين من غربها، ولكن محاولة تبرير البيض حكم السود ورقهم باستنادهم إلى أسطورة "حام" السابقة مصطنعة وغير مقبولة. وعلى هذا فليس من الأمانة مطلقا أن نعد الحامية مبررا للتفرقة العنصرية وبخاصة لأن الحاميين من الوجهة التاريخية لم يكونوا يوما ما خدما لإخوتهم. بل على العكس، كان هؤلاء الإخوة أبناء سام هم خدمة الحاميين فى مصر.

وفى العهد الجديد لا يقر هذا الكتاب المقدس تمييز الأقليات فى قصة السامرى الطيب. ففى إنجيل متَّى إصحاح ١٠ نقرأ «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ولكن .... إنه السامرى»،[١] وموقف اليهود الذى ينطوى على التمييز لايكاد ينسب إلى حالة الحرب الفعلية لأن السامريين كانوا يحسنون معاملة اليهود، بل قد عرضوا عليهم بناء المعبد. الواقع أن سبب تمييز السامريين أنهم حنقوا عليهم لأنهم لم يخلصوا لدينهم ولفقوا بينه وبين غيره من الديانات إن «الدين الوحيد الصحيح»، الدين الذى هو خير من جميع الأديان لم يؤمنوا به. فالتمييز الذى كان بين اليهود والسامريين إذن كان مسألة تمييز عنصرى وكان لايقره مطلقا الكتاب المقدس الذى جاء فيه إن الله «خلق كل الخلق من نفس واحدة ليعمروا سطح الأرض كلها» ومع هذا فتتمة الكلام فيه «إلى أجل مسمى وفى مقام محدود».

(١) تراجع قصة السامرى فى إنجيل لوقا الإصحاح ١٠ أيات ٢٣ - ٢٧ - المراجع .

المسيحية :

إذا أردنا تفسير تطور المسألة العنصرية بين المسيحيين يمكن رسم عدد من الدوائر تمثل الأولى المسيحية فى بلاد البحر الأبيض وتتسع الدائرة الثانية حتى تشمل باقى أوربا والثالثة إلى الشرق الأدنى والشرق الأوسط والرابعة للشرق الأقصى(١) والخامسة إلى الأمريكيتين والسادسة تشمل أفريقية.

الدائرة الأولى :

كان المسيحيون فى القرن الأول الميلادى من القلة بحيث لم يكن من المتوقع أن يكون بينهم أى لون من التفرقة العنصرية. ولم يكن لمعتنقى الدين اليهودى، المسيحى أن يعادوا الساميين، والعالم السامى مهد دينهم. ومع هذا فقد كان الساميون فى منطقة البحر المتوسط من قديم الزمان قبل مولد المسيح مصدر تهديد لسواهم من الشعوب، فالفينيقيون سكان المنطقة التى تعرف الآن بلبنان استعمروا شمال أفريقية وأسسوا قرطاجنة وكانوا يهددون سلامة روما ولم يقض على خطرهم إلا بعد ثلاث حروب، وفيما كتب"تاسيتوس" "وسنكا" Tacitus - Seneca يظهر لنا شعور الغرب ضدهم فى تلك الأيام وربما أثبت البرابرة ذوو البشرة السمراء وجودهم أيضا فى تلك الفترة، ومن المعروف أن لفظ "البربر" مشتق من كلمة يونانية استعملها "هومر" قبل مولد المسيح بخمسمائة عام لأن لغتهم التى لم يفهمها كانت أشبه بثغاء الغنم ولهذا كان من الأكثر احتمالا أن البربر أول من أطلق عليهم هذا الاسم Barbaroni وأن هذا الإطلاق - على هذا الأساس أقدم من اطلاقه على "المتبربرين" Barbarians القادمين من

---

(١) إن ذكر الشرق الأدنى والشرق الأقصى يقتضى اعتبار بريطانيا فى وسط العالم وفى العهد الحاضر لا يعجب الوطنيين فى بلاد الشرق أن يحدد موقع بلادهم جغرافيا بالنسبة إلى بلد أم وليس هؤلاء على حق نظرا إلى أن تحديد الأمكنة يقوم على أساس بعدها عن خط الصفر أى فى جريتنش.

الشمال، ومن حسن حظ "هومر" أنه لم يعلم أنه ولد فى أرض تركية[1] غير يونانية وأنه لو ولد فى أيامنا هذه لرطن بغير اليونانية، ومع هذا فأرسطو الذى ولد بعده بخمسمائة عام كان يرجو أن يكون كل من ولدوا خارج حدود بلاد اليونان عبيدا لليونان الذين ادعوا أنهم وحدهم أصحاب الفكر.

الدائرة الثانية :

تخلت المسيحية بعد انتشارها التدريجى فى أنحاء أوربا عن عطفها على اليهود، فهم فى رأيهم قد قتلوا المسيح وعرف عنهم أنهم يقدمون أبناءهم قرابين توصلهم إلى الجنة، وفى القرن العاشر كان لليهود حى خاص فى القسطنطينية، وكان محرما عليهم فى كثير من البلاد أن يتزوجوا بالمسيحيات أو يؤدوا الشهادة ضدهم. وكثير منهم حرقوا فى برلين فى القرن الخامس عشر. وأما فينا فقد طهرت من اليهود جميعا وكانوا متهمين بتثبيط غيرة الصليبيين ولهذا منعوا من الاتصال بهم، وفى سنة ١٥٥٥ أنشأ البابا "بولس الرابع" لهم معسكرات تغلق أبوابها ليلا، وكان غير المسيحى خارجا على القانون. كتب "لاندمان" Landmann أن الفلاحين الإيطاليين ما زالوا يضربون حميرهم ويصيحون Non é cristiano (ياغير المسيحى!).

الدائرة الثالثة :

وعندما استتب أمر الدائرة الثانية فى أوربا حاول المسيحيون أن يحملوا الإنجيل معهم إلى الشرق ومن رأى "بانيكار" Panikkar أن ذلك لم يكن إلا وسيلة لإخفاء غرضهم الحقيقى وهو البحث عن مجال حيوى lebensraum خارج أوربا وبدأت الحروب

(١) لعل أكثر البلاد احتمالا لمولد "هوميروس" بلدة أزمير.

الصليبية والحروب الدينية، ولم تنته تلك الحروب التى لاطائل تحتها ضد من لم يؤمنوا بالديانة الجديدة من الشعوب الأخرى إلا عندما وقع الخلاف بين المسيحيين أنفسهم إبان الإصلاح الدينى، فعادوا إلى جبهة الحرب الدينية فى بلادهم.

الدائرة الرابعة:

فى تلك الأثناء هيأت الاستكشافات ميدانا للدائرة الرابعة فى الشرق الأقصى، ومع شدة الأهوال التى كانت تصحب الحروب الصليبية لم يكن هناك شعور قوى ضد التبشير، حتى أن كثيرا من الناس أمكن اعتناقهم للنصرانية رغما من قوة الديانات التى كان المبشرون يعملون ضدها.

ورغما من مرور عدة قرون على أعمال التبشير واعتناق كثير من الناس للنصرانية، فقد كان هناك ما خيب الآمال؛ إذ لم يجد كثير من البوذيين والهنود تعاليم النصرانية أكثر إغراء من ديانتهم، ولم تزدهر بذور النصرانية وبخاصة عندما كان يسقيها المبعوثون البيض بالآراء الغربية، وفوق ذلك كان الأسيويون يرون فى المبشرين عملاء لنشر العدوان الثقافى الغربى، وقد حملوا معهم ثمار المدنيات الأجنبية إلى أوربا كأنها غنائم الحرب، وفضلا عما لقيته النصرانية من مقاومة الديانات المختلفة فى الشرق الأقصى وجدت نفهسا وجها لوجه أمام الإسلام الذى كان يكسب المواقع أمام النصرانية التى كانت مشوبة بمدنية الرجل الأبيض. وقد أجاز البابا "نيقولا الخامس" للبرتغاليين تنصير الملحدين حتى من سبق إسلامهم ولكن الملحدين أنفسهم يخشون الدخول فى النصرانية على أساس أنها أداة للاستعمار. ولقد ظل خوفهم هذا مستترا مدة ثلاثة قرون وأحيانا كانت لهم الرغبة فى أن يتنصروا خشية الانتساب إلى الطبقة الاجتماعية الدنيا حتى أخذت قوة الغرب تضعف فى أسيا فارتد كثير من الأسيويين عن ديانتهم المسيحية[1]. وفى الصين خاصة، لم تلق الديانة المسيحية أى قبول لاهى ولا المدنية الغربية الممقوتة.

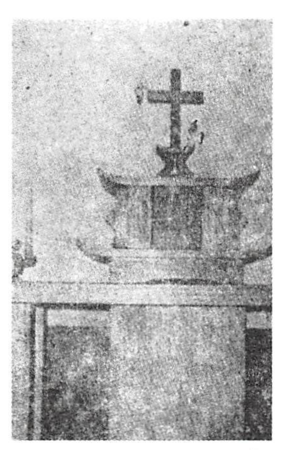
---

(١) كان من أسباب انتشار الإسلام بين الشعوب غير الإسلامية اختلاط المسلمين بأهالى البلاد وإقامتهم الدائمة بالبلاد الجديدة.

وعندما قارب عهد الاستعمار على الانتهاء دعت «الخرافة» المسيحية القائلة بأن آسيا وأفريقية يمكن تنصيرهما إلى تأسيس الكنيسة الفتية **Young charch**؛ حيث كان الآسيويون والأفريقيون أنفسهم يبشرون بتعاليم الإنجيل وكان لديهم ميل قوى لتمثيل الرب فى صورة أهل البلاد الوطنيين. وفى كتاب "أرنوليمان" **Arno Lehman** مائة وسبعون صورة ذات ملامح آسيوية وأفريقية للمسيح والسيدة العذراء والواقع أن الرجل الأسود لم يكن يهتم بالصور الدينية ولكن همه كان منصرفا للحظوة بما يحظى به الرجل الأبيض من مكانة. وهذه كانت أيضا الحال فى أفريقية ولهذا سأستعير بعض الأمثلة من الدائرة السادسة، ولقد قال أحد أهالى الكنجو إن الأفريقى ليفضل الرجل الأبيض ذا القلب الأبيض على التماثيل السوداء التى يصلى فى حضرتها، وأصبح وضع الكنيسة فى المستعمرات السابقة أكثر مرونة كما علمت من حديثى مع أحد المبشرين.

ومن حديثه أن كثيراً من الملونين أصبحوا شديدى الحساسية لكل مايريد الرجل الأبيض أن يخبرهم به، وحتى وهو على منبر الكنيسة كان على القسيس أن يستبدل بقوله «أخبركم» قوله «أهبكم» وقد حلت كلمة «أبرشية» محل كلمة «إرسالية».

وفى مدى بضع سنوات تحولت القيادة فى عهد الاستعمار إلى «مشاركة فى الطاعة» ولأول مرة أصبح الأبيض وغير الأبيض جارين بكل ما يحمل



مذبح تصميمه مستوحى من الكرسى المقدس عند الأشانتى



بطاقة مكسيكية لعيد الميلاد تمثل صورة السيدة العذراء عند الهنود الحمر



تمثال للسيدة العذراء كما تصورها البانتو

المسيح الأسود "لنولا هاترمان" فى متحف الجلس بأمستردام

لفظ الجوار من معنى، وهكذا بعد ألفى عام من قيام المسيحية وبعد أربعمائة عام من الفرص المضاعة فى المستعمرات يمكن أن يقال أن الهدف أمكن الوصول إليه فى الساعة الأخيرة وسنرى فى نهاية هذا الفصل إذا كان هذا صحيحا أو غير صحيح.

الصور المقدسة والوصية الأولى:

عندما توطدت الكنيسة الفتية أخذت تنتج عددا من الصور تمثل القديسين كأفراد من الشعوب المختلفة، والصعوبة التى نتجت من عمل هذه الصور أنها قربت المسافة التى تفصل بين الإنسان وربه إلى مثل المسافة التى بينه وبين أحد جيرانه، وكان هذا التطور متوقعا؛ حيث لم يعد الإله الأبيض قادرا على اجتذاب الرجل الأسود وزيادة على ذلك لم يقم أى اعتراض على هذا التبديل العنصرى فى تمثيل الإله الذى اختاره الرجل الأسود، وأن الرجل الأبيض مثل الإله على صورته، ولكن الذى يؤسف له أن هذا الاتجاه لم يحدث إلا متأخرا، ولما كان الأهالى عرفوا الإله - أول ماعرفوه - إلها أبيض فلا لوم عليهم إذا نظروا إلى الإله الجديدة فى شىء من الريبة وقد أخفى شكله وقدمه لهم الرجل الأبيض فى المستعمرات السابقة. وإذا أريد أن ترفع هذه الريبة وكانت المسيحية قد غيرت فعلا بشرتها البيضاء وطبيعة الأشياء تقتضى أن يتبع وجود القديسين السود وجود بابا أسود(١). وإذا كان هذا التطور صحيحا ومنطقيا فهذا يحتم تخلى الإله عن صفة الذكورة التى ترتبط به. وقد تم هذا فعلا بتقديس السيدة العذراء. إن مشكلة العنصر ولون البشرة وجنس الإله وكلها بعض مسائل الكنيسة يمكن القضاء عليها بالفراغ المقدس الذى نجده فى مسجد المسلمين . فهناك يهرع آلاف من الناس إلى الله المنزه عن الجنس واللون حقا «لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض» (سفر الخروج الإصحاح العشرون)

---

(١) فى السنوات العشرين الأخيرة عين كثير من الأفريقيين والأسيويين كهنة فى الكنائس وبلغ عدد الكهنة الوطنيين ٦٠٠٠ فى أسيا و٢٠٠٠ فى أفريقية ووصل أحد الأفريقيين لأول مرة إلى وظيفة كاردينال سنة ١٩٦٠

الدائرة الخامسة :

امتدت الدائرة الخامسة للمسيحية إلى الدنيا الجديدة وكانت المقاومة فيها أقل منها فى الدوائر الأولى واختفى آلهة قبائل "الأزتك" و"المايا" و"الإنكا Aztecs-Mayas-Incas على أثر عرض الديانة الجديدة، وعمد آلاف من الهنود فى وقت معا، وجاء الصليب للأهالى بالخلاص إذا لم يخلصهم السيف، وأحيانا كان الصليب والسيف يعملان معا جنبا إلى جنب.

وأصبح "حام" مصدر كل الشرور عند الرقيق الزنجى وكان عليه أن يخضع لعملية التعميد ولم يكن له فى ذلك أقل خيار. وكان الخلاص قريبا ممن ورثوا لعنة "حام" إذا سلموا أنفسهم لرق العبودية. وحتى بعد إلغاء الرق لم تقم الكنيسة بأى حل لمسألة الزنوج بل زادتها تعقيدا بما كان فيها من انقسام، وكان معظم الزنوج فى أمريكا الشمالية يعتنقون البروتستانتينية، وتبع الكنيسة الكاثوليكية معظم زنوج أمريكا الجنوبية، وفضلا عن ذلك فإن المسيحية بين زنوج أمريكا الشمالية كانت شيعها تبلغ المئات[1]. وكان فى شيكاجو حوالى ٥٠٠ مذهب. ويمكن أن يعزى هذا الانقسام إلى أن كل فريق يرى نفسه هو المختار وأنه يضمن له الاتباع ببناء كنيسة خاصة وفى بعض الأحيان عندما يملأ القلق الروحى قلوب بعض الناس يبحثون عن الخلاص فى نواح متعددة، وهذا يدعو إلى كثرة المذاهب الدينية وحاول الباحثان "سمسون" و"ينجر" Jinger & Simpson البحث عن تفسير لهذا الوضع فى الحاجة الطبيعية عند الزنوج إلى الدين وهما يقسمان الفرق الدينية إلى أربعة أقسام :

كنسية Ecstatic ونصف توجيهية Semidemonstrative وسمعية deliveratvei وعلاجية Liturgical على أساس من طبيعة الاتباع مثال ذلك أن معظم الطبقات الدنيا

(١) لم يكن التعدد الكبير فى الكنائس مقصورا على أمريكا ولا خاصا بالزنوج وحدهم، فحتى قبل حركة الإصلاح الدينى كان فى أوروبا عدد غير قليل من المذاهب المسيحية.

من الزنوج من البابويين والطبقة الوسطى من المتوديست والبرسبتريان Nethodist-presbyterian

أما من حيث أن الزنجي ميال إلي شدة التدين وهو ماجعله سهل الانقياد إلي المسيحية، ومن حيث أنه واقع دائما كما يقول "هيرزكوفتسى" Herskovitz تحت تأثير الغيبيات يجب أن نذكر أن هذا ليس مقصورا على الأفريقيين، ومن المحقق أن الآلام الشديدة التى يقاسيها الناس وبخاصة تعذيب أجسادهم مما يدعو إلى اعتناق كل ضروب العقائد ومن هنا يمكن أن نفهم سر قبول الزنوج لفكرة صلب المسيح بوصفه المخلص لهم ورفعه من قبره(١).

ولا يزال فاصل اللون موجودا فى كثير من الكنائس الأمريكية. يقول "لوتشر" Loescher أن البروتستنانت يبدأون عادة بمنع قبول الزنوج ولكن بمجرد دخولهم تباع الكنيسة إلى أصحاب المذاهب الزنجية، وفى الكنيسة البرسبتيريه Presbyterian مجلس خاص لكنائس الزنوج في الولايات الجنوبية وكنيسة الميثودست Methodést ويضم معظم الاتباع لها مجلس قضائى خاص يعمل على أساس التفرقة العنصرية، وفى الأيام الأخيرة أخذت الكنيسة الرومية الكاثوليكية تهتم بزنوج أمريكا الشمالية ووقفت موقفا حازما ضد كل تفرقة أو تمييز عنصرى، وأنشأت فى كل ولاية مجالس مختلطة تضم جميع الأجناس. ومما كتبه "توينبى" أن الكنيسة الرومية الكاثوليكية تخلصت من التفرقة العنصرية فى جميع أشكالها، ولم يمض زمن طويل حتى أذنت الكنيسة الرومية الكاثوليكية بالزواج المختلط، ولكن أتباع "كالفين" Calvin لايزالون متمسكين بالتفرقة العنصرية، ومن رأيه أن البروتستانت هم آخر من أوقف تجارة الرقيق وأن التفرقة العنصرية أقوى ماتكون فى البلاد البروتستنتينية.

---

(١) كثيرا ما يتعنق الزنوج النصرانية لإخفاء وثنيتهم ولا يكون قديسوهم فى الواقع سوى أصنام تحمل أسماء القديسين المسيحيين، ومن جهة أخرى تسمح الكنيسة الكاثوليكية البعيدة النظر - فى بلاد المنطقة المدارية التى تسير فيها المسيحية سيرا بطيئا - ببعض الطقوس والآراء المخالفة للمسيحية أن تبقى بجانب الطقوس والآراء المسيحية (هانتنجتون Huntington).

وليست التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة مقصورة على خلاف اللون إذ يقال إن الشعور المستتر ضد السامية Anti Semitism يلحظ فى الفنادق المحجوزة، وهناك صورة أخرى من التفرقة يمكن إبرازها فى الفنادق التى تعلن : «مرحبا بضيوفنا المسيحيين» أو «الكنائس قريبة منا».

الدائرة السادسة :

تشمل الدائرة السادسة المسيحية قارة أفريقية، وتنقسم إلى المنطقة الإسلامية فى الشمال والكاثوليكية فى الوسط والغرب والبروتستانتينية الشديدة المعارضة فى الجنوب. وبين هذه الديانات الثلاث تنافس على هداية نفس الزنجى وقد كتب "فسر هوفت" Visser Hooft يقول : «عندما اتصلت أمم غرب أوربا بالشعوب الأفريقية وحكموا بلادهم كان بعض رجال الدين فى كل من أفريقية وأوروبا يظن أن هذا له ما يبرره. قال ومما يريح نفوسنا أن نقرر أن هذا الخطأ لم يستمر بلا معارضة، وأن من الصعب أن يوجد الآن رجل واحد من رجال الدين المخلصين يحاول أن يدافع عن مثل هذه النظريات الخاطئة» ولكن "مالان" Malan وهو عالم دينى ورائد كنسى قال : «إن عقيدة الأفريكانى وهم من البوير البيض فى جمهورية جنوب أفريقية – التى لاتتزعزع أنه إذا أراد أن يكون عمله متفقا مع رسالته الحقة فى الحياة. وهى ايصال الإنجيل إلى الوثنيين يجب أن يحتفظ بشخصيته العنصرية» ومع هذا فلو أراد الإنسان أن يرى فاصلا رسميا للون فى كنيسة جنوب أفريقية فلن يجده، ومن سوء الحظ أن ذلك ليس راجعا إلى أنه غير موجود بل لأن الإعلانات الدالة على التفرقة مثل: «الأفريقيون ممنوعون» لاحاجة إليها، والتشريعات العنصرية فيها نص كنسى يبيح للوزراء المسئولين عن الشئون الكنسية فى ظروف خاصة عدم السماح بدخول غير البيض كنائسهم .

ومع هذا فهناك تغيير طفيف أخذ يحدث تدريجا؛ كتب "هدلستون" Huddlestone فى رأس سنة ١٩٥٦م «سيجىء اليوم الذى يسأل فيه الأفريقيون فى تحد هل المسيحية

كلها لاتعدو أن تكون آلة فى أيدى السادة البيض؟ وهل لا تكون هناك مسيحية زنجية؟ وألا يوجد دين غير المسيحية يستحق البقاء؟ وفى نفس الأثناء قامت منافسة تسترعى الانتباه بين المسيحية والإسلام فى وسط أفريقية، ومن رأى "ثرفول" Threfall أن الروح الحربية لدى المسلمين تشوق الأفريقيين أكثر من طبيعة المسيحية الهادئة المحبة للسلام[١]. والتى ينظر إليها على أنها خدعة كاذبة من أساليب التدخل، والإسلام كدين أيسر من الديانات الأخرى وأكثر تماسكا، ويسمح بتعدد الزوجات. فضلا عن ذلك فهو لا يقضى بتغيير عادات من يدعون إلى دخول الإسلام أو تقاليدهم أو قوانينهم الأخلاقية، وللإسلام ميزة أخرى أنه دين أفريقى أسيوى ليس مجلوبا من خارج هذه البلاد بينما المسيحية والكاثوليكية بخاصة لها رؤساؤها البيض فى أوربا، وفى تصرفات الكهنة البيض ما يدل على أنهم خلفاء الحكام البيض السابقين، وأخيرا والإسلام، ومقره فى بلاد غير البيض، يعد الدين الممثل لغير البيض، والإسلام لايقيم ما يفضل بين رجل الدين والرجل العلمانى «المدنى» وتعاليمه ليست معقدة، والمسلمون كما سبق القول لايعيشون فى معزل عن بقية الوطنيين بل يخالطونهم، وعدد المسلمين فى أفريقية الآن يقرب من مائة مليون، وهناك أصول كبيرة للإسلام من صدق بها كان من المسلمين. وهذه الأصول هى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبمحمد خاتم الأنبياء، وفى العالم الآن يقف القرآن أمام الإنجيل بنسبة من الأتباع تعادل ٣ : ١

وهناك صور حديثة يمثلها انتشار الأحمدية ونشاطهم التبشيرى[٢] وإذا أريد للمسيحية أن تنتشر وألا تفوقها الديانات الأخرى فى العدد فعليها أن توجد ديانة مبسطة وأن تبدأ فى نشرها.

---

(١) ليس فى الإسلام روح «حربية» كما يدعى المؤلف أو ينقل دون تعليق، إذا كان يقصد بهذا عدوانا، ونصوص القرآن واضحة فى عدم الإكراه كقوله تعالى «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» وقوله «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين». أما المحافظة على الحق ونشره فأساس لصلاح المجتمع والإنسانية دون عدوان، بل لرد العدوان وتأمين السلام المراجع وفى هذا يقول الله تعالى : «وقاتلو فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

(٢) الأحمدية هم أتباع "مرزا" غلام "أحمد القاديانى" وهم فى الواقع ليسوا صورة جديدة للإسلام كما يقول المؤلف فمصادر التشريع الإسلامى معروفة واضحة وهى كتاب الله وسنة رسوله محمد « ﷺ » والمصادر=

التفرقة الدينية فى أوربا:

ظلت الكنيسة مدة طويلة تعتقد أن دينها هو الدين الحق وأن عليها أن تنشره بين من لايدينون به. إن الشعوب التى لا دين لها أو التى تتذبذب بين دين وآخر كانت تعد فى منزلة دون منزلة المسيحيين، وهكذا نبتت بذرة التفرقة الدينية فى أوربا ضد من لا يدين بالمسيحية، ولا يزال هناك ميل فى كثير من المدارس الأوربية إلى عدم تعليم أبناء غير المسيحيين. ومع أن الأساطير القديمة لها مكان فى مناهج التعليم فإن الشباب الأوربى- حتى فى البلاد التى بها رعايا غير مسيحيين - محكوم عليه بأن يجهل جهلا تاما كل ما يتصل بالإسلام والبوذية والهندوكية وعلم النفس لدى الشعوب البدائية وحكمة الشرق. والقرآن ليس محرما باعتباره أحد هذه الممنوعات فحسب، بل يحرم بنص صريح فى القانون الرومى الكاثوليكى. ولقدعاش آلاف من الأوربيين فى البلاد المدارية أعواما دون أن يقتبسوا منها إلا قسطا بسيطا من الجغرافيا المحلية الأولية، وقد ظل كتاب «ألف ليلة» مدة هو المرجع الوحيد لما هو «غير أوربى»، وكان سكان المستعمرات يلقنون دروسا فى مدينة البلاد التى تتبعها المستعمرات وفى جغرافيتها، ولكن أبناء الأوربيين المقيمين بهذه المستعمرات كانوا يجهلون جهلا تاما الديانات العظمى التى يدين بها غير المسيحيين.

ولو أن هذه التفرقة العنصرية لم تصل إلى هذا المدى البعيد فلربما عرف الأبيض شيئا عن جاره، وعرف أى إنسان ذلك الجار، ولربما عندما فقد كل المستعمرات التى حصل عليها لم يكن ليفقد معها كريم الشعور.

=الأخرى التى قال بها علماء الأصول كالقياس والإجماع تدور فى فلك الكتاب والسنة ولا تخرج عنهما وبهذا المقياس يمكن أن توزن جميع المذاهب ويتبين مدى استقامتها أو انحرافها.

والأحمدية أتباع "مرزا" "غلام" "أحمد" فريقان: فريق يقول أنه رسول يوحى إليه وأنه المسيح الموعود دون تأويل وأن من يشك فى صحة نبوته ورسالته وأنه المسيح المنتظر فهو كافر، وفريق آخر يقول إنه كان مجددا ومصلحا ولم يكن نبيا بالمعنى الاصطلاحى ولكنه محدث ملهم وأنه كان يتبع دين الإسلام وتعاليمه وهؤلاء هم الأحمدية اللاهورية. راجع كتاب: حاضر العالم الإسلامى: الهند، وهو مجموعة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ" محمد حبيب أحمد" بكلية أصول الدين. مطبعة الأزهر ١٣٦٤ - ١٩٤٥ - فى الصفحات (١٤ ، ١٥) وقد عرض سيادته للمذاهب الإسلامية فى الهند .(المراجع)

ومن رأى "بيرن" Pirenne "وتوينبى" Toynbee أن الاعتقاد بأن المسيحية هى الديانة الصحيحة الوحيدة هو الذى مكنها من الاحتفاظ بمكانتها بين عدد عديد من الديانات الأخرى، ولكن من العسير أن نقرر إلى أى مدى كان عليها أن تنافس غيرها من الديانات فى أوربا منذ القرن الخامس عشر إلى الوقت الحاضر .

وإذا نظرنا من الجانب الآخر نجد أن سوء فهم الرجل الملون للرجل الأبيض هو أثر لنظره إلى البيض جميعا نظرة واحدة، ودمغهم جميعا بوصمة واحدة، وهذا ناجم من الاعتقاد بأن الرجل الأبيض - وقد أشرب تعاليم المسيحية منذ الصغر - هو لاريب مسيحى صحيح الإيمان، وهو شبيه بالاعتقاد بأن كل من ليس أبيض البشرة هو وثنى أو من أكلة لحوم البشر. وإننا لنؤكد - ولاغلو مطلقا فى هذا التأكيد - بأنه لا يوجد أى أساس لاعتبار أية حركة غريبة مهمة هى فى الوقت نفسه حركة مسيحية حتى باعتبارها تطبيقا عمليا للتعاليم المسيحية حتى يحين الوقت الذى تكون فيه العقيدة المسيحية أساسا لكل قول وكل فعل صادر من الرجل الأبيض، وعلى هذا ليس من الحق أن نلوم المسيحية أو الإسلام على ما يصدر عن الحكام من أعمال سياسية خاطئة أو سخافات أو مظالم، كما يقول "وندرو سويتمان" Windrow Sweetman : «إن النظرة العالمية اليوم لا يمكن أن تقارن بما كان عليه منذ خمسين سنة».

التحرير :

لقد تساءلنا من قبل - هل بلغت المسيحية هدفها «فى الساعة الأخيرة» بعد ألفى سنة من بدء الرسالة المسيحية وبعد أربعمائة سنة من التبشير فى أسيا وأفريقية. وهل نحن فعلا فى الساعة الأخيرة؟. أما من حيث الكفاح ضد الإسلام فلا شك أن الجواب بنعم، وأمامن حيث التحرير، أو بعبارة أصح «فك عقدة» البلاد المحكومة فالجواب مختلط[١].

(١) لقد تطور الوضع فى العالم كله بعد عام ألف وتسعمائة وستين واستقلت معظم دول أفريقية وكانت أوسع مواطن الاستعمار. وزاد عدد دولها المستقلة على الثلاثين فى الوقت الحاضر - المراجع.

والرأى السائد اليوم فى المستعمرات السابقة أن المستعمرين أخروا عامدين تقدم الشعوب المحكومة. وإذا كان ذلك كذلك فأى دافع أيقظ الوطنيين ونبههم إلى هذه الحقيقة حتى يحدثوا شيئا من التغيير، ولمن أو لأى شيء تنسب هذه البلاد المتأخرة فضل تحريرها من تلك المحرمات الوثنية العديدة التى كانت تمنع أكثر مما تسمح، والتى كانت سببا فى حالة الخمول الثقافى التى كانت عليها البلاد قبل قدوم المستعمرين بوقت طويل. الحقيقة أن المسيحية والإسلام اللذين ينسب إلى دعاتهما تعطيل التقدم الوطنى كانا هما العاملين الفعالين فى القضاء على هذه المحرمات، ولو أن ذلك تم بغير الأسلوب الذى أرادوه، وما تكاد قلة من أسيا وأفريقية أن تهتدى إلى الدين القويم أو تعرف المدنية الغربية إلا وتقود شعوبها إلى التحرر الذى يسمى بالاستقلال السياسى. لقد عاد المسيح ثانية ولكنه لم يعد بالصورة التى كانت منتظرة. ولمن ظل مترقبا عودته كانت أربعمائة عام فترة طويلة، ولكنها بالقياس إلى فترات التاريخ لا تزيد على حياة الدولة الرومانية. وهكذا حصلت البلاد الوثنية كثيرا من الخير من الإسلام والمسيحية رغم ما أصابها من شرور[1].

---

(١) يحاول المؤلف هنا أن يضع الإسلام والمسيحية فى نسق واحد من حيث علاقتهما بما يسميه الدول الوثنية. والأمر يحتاج إلى توضيح. فلقد كانت المسيحية فى أفريقية قبل دخول الإسلام. وعايشها الإسلام منذ دخوله. ومن هنا ينبغى أن نفرق - من الناحية السياسية - بين المسيحية الأصلية التى كانت فى القارة ومركزها الإسكندرية، وبين المذاهب المسيحية التى جاءت مع الاستعمار الأوربى: البرتغالى والإسبانى ثم الهولندى والفرنسى والإنجليزى.

هذه المذاهب الوافدة حاربت الإسلام والمسيحية الأصلية فى القارة، وأوضح الأمثلة من ذلك ما حدث فى أثيوبيا من محاولة الأوربيين تحويلها عن الأرثوذكسية. وقيام الحرب هناك بين الأثيوبيين والقوى الاستعمارية محافظة على الحرية الدينية.

ومن ناحية أخرى اضطر سكان القارة القدامى رغم أديانهم - إسلامية أو مسيحية أو وثنية - أن يحافظوا بصورة أو بأخرى على أوضاع فيها انطواء جزئى عن الاستعمار فضلا عن أن الاستعمار من ناحيته كان يفضل تحويل الوثنيين عن أديانهم واصطفاء قلة منهم للقيام بأعمال محدودة ذات طابع ثقافى. ومع هذا استطاعت هذه الشعوب رغم تعدد ثقافاتها ودياناتها ومواقفها من الاستعمار ومواقف الاستعمار منها أن تتخذ موقفا تحرريا كانت ثمرته استقلال مساحات ضخمة من القارة. هذا التحرر ليس نتيجة قصدها الاستعمار ولكنه رد فعل يمتاز بالمقاومة ثم الاستقلال ثم التعاون العالمى على أساس من المساواة (المراجع).

الفصل الرابع

متاعب الجماعة الوسطى

«حاجز الظل» و«حاجز الشعر»:

إن الحالة الاجتماعية للشعوب الملونة أو المختلطة لاتقل مشكلتها عن مشاكل حاجز اللون فى الشعوب غير المختلطة التى حافظت على «سلامة عنصرها، بل مشاكلها أشد تعقيدا. إن صعوبة العثور على اسم لهذه الجماعات المتوسطة هو فى ذاته أحد الجوانب الكثيرة لهذه المشكلة. وزاد المشكلة تعقيدا أن كثيرا من الملونين يعدون أنفسهم بعض أفراد الشعب الذى ينتمى إليه آباؤهم أو أجدادهم. حدث فى البرازيل فى أحد الاحصاءات أنه كان من المستحيل إجراؤه بدقة بسبب تسجيل غير البيض على أنهم من الجنس الأبيض[١]. وقال "جارفى" Garvey الذى أسس إحدى الكنائس الأرثوذكسية الأفريقية فى الولايات المتحدة: «إنى كنت مكروها ولم يحسن معاملتى الملونون الذين أرادوا أن يعتبروا من البيض لا من السود وكانوا يكرهوننى كالسم» وفى أثناء الاحتلال اليابانى لجزائر الهند الشرقية السابقة، وبعد هذا الاحتلال كان كثير من الأوروآسيويين يعدون أنفسهم هولنديين أو إندونيسيين، بل قد تنقل

(١) كلمة "غير الأبيض" non - white لاتدل ولا تنطبق على ذوى العنصر المختلط الملونين أو السود وإنما تعنى ببساطة ما يشير إليه اللفظ – أى غير البيض. ولفظ الملونين لفظ مكروه فى كثير من البلاد ويعنى لفظ "بيانكو" Bianco فى البرازيل كل شخص جلده غير قاتم حتى السود إذا كانوا ذوى مكانة ما يسمون أنفسهم "بيانكو" ولفظ "بريتو" Preto يطلق على الرجل الأسود الفقير وفى هذا المجال يدل اللفظ على تمييز فى الطبقة أكثر منه تمييزا فى العنصر وعندهم أن الأسود الغنى فى منزلة الأبيض. والأبيض الفقير ما هو إلا فى منزلة العبد الأسود (دونالد بيرسون).

بعضهم من إحدى الجنسيتين إلى الأخرى- أيهما كانت أنسب - فى فترات متقاربة. وهذه الانتهازية يمكن تفسيرها بسهولة، حيث أن هذه الجماعات المتوسطة التى ليس لها حق صريح فى الانتماء إلى جماعة بعينها تحاول أن يعترف بها بين الجماعة التى منها أحد الآباء أو الأجداد. وهذه الانتهازية أو مايشبهها غير خافية فى مناطق الحدود المتنازع عليها فى عالمنا الأبيض.

وكانت المسألة فى الهند فى غاية التعقيد فبناء على قانون المجلس الهندى سنة ١٨٧٠ كان أصحاب النسب المختلط والبيض متى ولدوا وعاشوا فى الهند يسمون «مواطنى الهند». ولكن فى سنة ١٩٢٠ كان كل شخص من أب أوربى أو غير أسيوى وأم تجمع بين الأوربية والهندية يسمى هنديا إنجليزيا. وعندما أرادت الحكومة سنة ١٩٢٥ الحصول على عدد أكبر من أصحاب الأصوات الانتخابية عمل تنظيم جديد يقضى بأن كل من كان أبوه أوربيا سمى أوربيا ومن كان أبوه ذا نسب مختلط سمى هنديا إنجليزيا. وبعبارة أخرى من كان جداه أوربيين فهو أوربى كذلك وإذا كان أحد أجداده من جهة الأب أوربيا فالابن والحفيد هندى إنجليزى[1]. والمعروف عادة أن مركز الجماعة المختلطة النسب هو شبيه بمركز الأقليات. وجماعة الأقلية يجب مع ذلك ألا تحمل معنى الضعف المترتب على العدد، ولكنها تقدر حسب مبلغ نفوذها قوة وضعفا. وفى بعض البلاد مثل جمهوريات أمريكا الجنوبية حيث للأهالى المختلطى النسب التفوق فى العدد والقوة والنفوذ تختلف مشكلة الجماعة المتوسطة عنها فى البلاد التى فيها هذه الطبقة المتوسطة أقلية تفصل بين الجماعتين التى ينتمى إليهما كل من الأبوين، عند ذلك ينشأ حاجز لون بين الجماعة المتوسطة أساسه الاختلاف المتدرج فى السواد وتدرج تجعد الشعر. ولما كانت حالة هذه الجماعة المتوسطة فى غاية التعقيد وأن الحيرة فى تعيين موقفها يترتب على عوامل ثقافية وعنصرية فإن هذا الموقف يحتاج إلى شىء من التوضيح.

---

(١) يلاحظ أن التمييز يرجع إلى العنصر وإلى الأنوثة جميعا.

إن حالة أعضاء الجماعة المتوسطة تختلف الاختلاف الآتى :

أولا: فى البلد الأب أى بلد الأسود من الأبوين.

ثانيا: فى البلد الأم أى بلد الأبيض من الأبويين.

ثالثا: فى نفس بلده حيث جماعته هى الأكثرية.

ومثل الحالة الأولى حالة الأوربى الآسيوى فى جزائر الهند الشرقية الهولندية السابقة، ومثل الحالة الثانية حالة الأوربى الآسيوى نفسه بالنسبة لهولنده.

والموقف فى أمريكا الجنوبية يمثل الحالة الثالثة.

والأم فى الجماعة الأولى عادة من الجنس ذى البشرة السوداء وقد لقيت الأب الأبيض المهاجر إلى بلادها . ومشاكل الجماعة المتوسطة متشابهة فى الحالة الأولى والثالثة. وهناك فرق بين هاتين الحالتين والحالة الثانية ولهذا السبب سنتناول بحث الحالتين الأولى والثالثة أولا، والثانية فى البلد الأم بعد ذلك.

١ - حالة الجماعة المتوسطة فى بلد الأسود من الأبوين:

فى هذه الحالة يغلب أحد المواقف الآتية: فى الموقف الأول يكون للبيض السلطان الكامل وفى الثانى لجماعة السود معظم السلطان مع الصراع الدائم بين جماعة أحد الوالدين السود وبين البيض. وفى هذه المواقف جميعا يفضل مختلطو النسب أن يعدوا أنفسهم منتمين إلى العنصر صاحب السلطان. ومع هذا فمن العسير على الرجل الملون أن ينتمى إلى إحدى الجماعتين إذا كان لون بشرته أشد سوادا من إحداهما أو أقل سوادا من الأخرى، فإذا كان أحد الأطفال فى إحدى المستعمرات أقل سوادا من أمه

التى تربى بين جماعتها فإنه يرى نفسه عادة أسمى منزلة من أسرته وأصدقائه. ولكنه سيكون «خارجا» فى أسرة أبيه الأبيض. وحتى فى جماعة أمه قد يعد مهينا بما أشرب من آراء البيض منذ ولادته وعندئذ يصبح فريسة شعور عدائى ظاهر أو مستتر حتى فى حالة ما إذا كان الوفاق سائدًا بين البيض والسود .

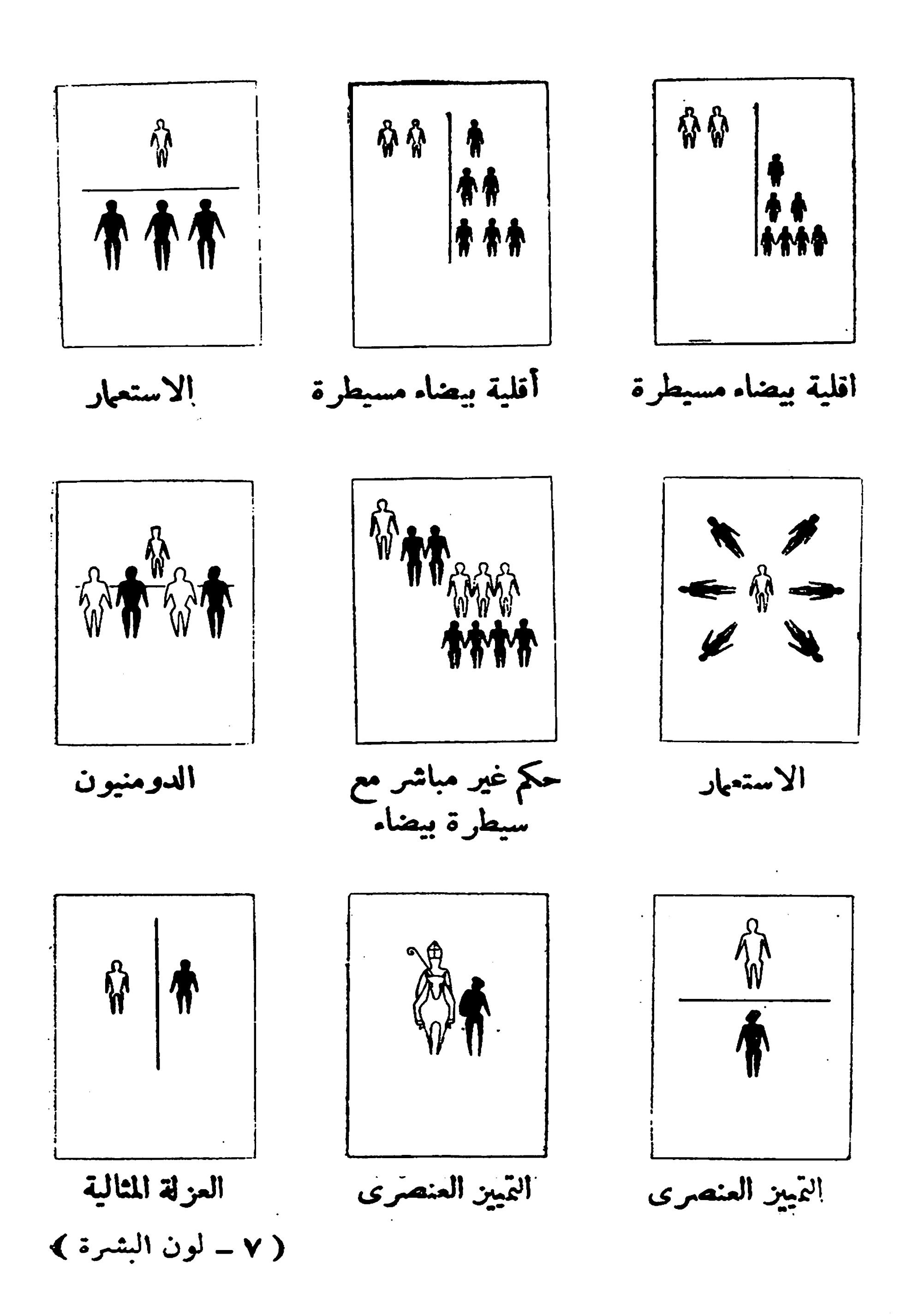
وإذا كانت الأجناس تعيش معا فى تنافر شديد كما فى الموقف الثالث فإن حياة الملون قد تكون فى خطر. وفى الثورة الإندونيسية قتل كثير من الأوروآسيويين لأنهم كانوا معدودين من البيض فى نظر الإندونيسيين ومع هذا فالبيض الذين يعيشون فى البلد الأب الذى يعيش فيه السود قد يعاملون كل ملون معاملة أساسها التمييز العنصرى، وقد يشتد سوء المعاملة بخاصة إذا كان الملون نتيجة علاقة غير شرعية.

وفى الهند وفى بلاد أخرى كثيرة ظلت الأحوال حقبة طويلة فى وضع يجعل من المستحيل انتماء أحد أفراد الجماعة المتوسطة إلى جماعة أى الوالدين وقد كتب "ستونكوست" Stonequist أن الأوربيين كانوا يعدونه مختلطا متى كانت عشيرته تعتبره لاجنس له، أما الهنود فكانوا يرونه منبوذا له مساوىء والديه جميعا وليس له فضائل أى واحد منهما(١).

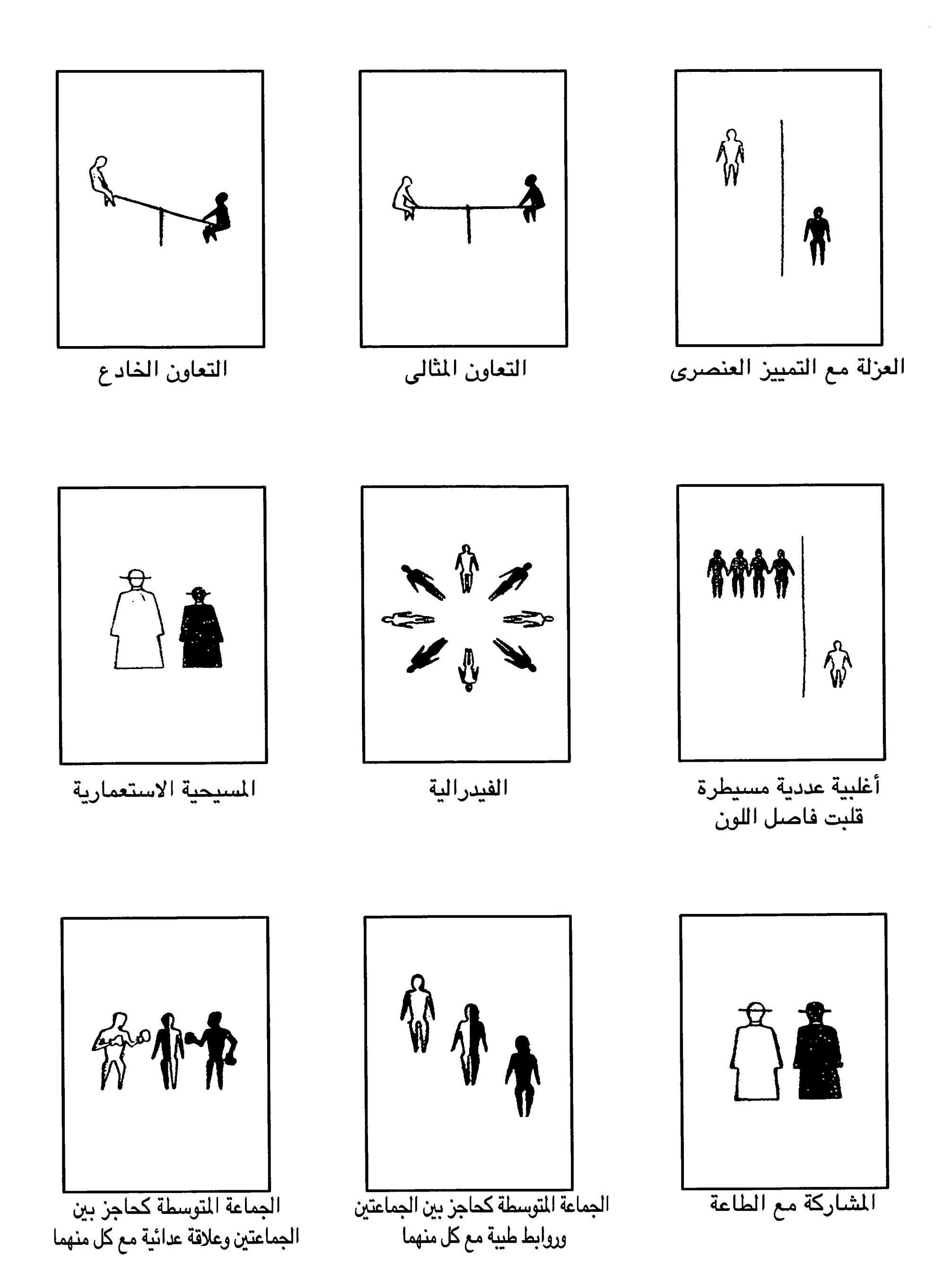
والظاهرة التى يسميها "أولبرت" Allport «حماية الذات» Ego Defence تتولد فى مثل هذه الظروف ولا يمكن تفسيرها، وهى تتضمن أن الإنسان الواقع تحت تأثيرها يرتاب فى كل شىء ويرى الحياة سلسلة طويلة من التنازع مع كل إنسان، وهذه الريبة التى كثيرا ما يتهم بها عضو الجماعة المتوسطة تصبح كأنها حاسة سادسة له ويسميها المغنى "هارى بلافونتى" Harry Belafonti الأذن الثالثة وهو شديد

---

(١) مما قاله "بانديت نهرو" «إن البريطانيين أوجدوا فى الهند طبقة جديدة طبقة متعلمى الإنجليزية الذين يعيشون فى عالمهم الخاص ولا علاقة لهم بسائر الأهالى».



(٧ ـ لون البشرة)



العزلة مع التمييز العنصرى

التعاون المثالى

التعاون الخادع

أغلبية عددية مسيطرة
قلبت فاصل اللون

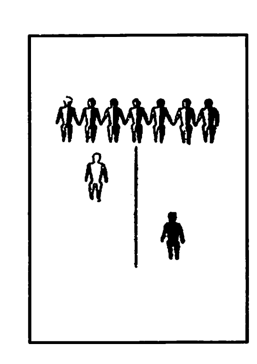
الفيدرالية

المسيحية الاستعمارية

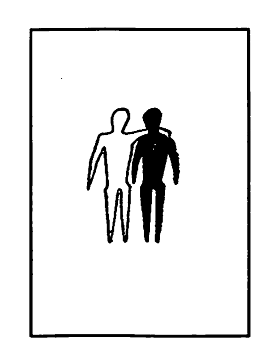
المشاركة مع الطاعة

الجماعة المتوسطة كحاجز بين الجماعتين
وروابط طيبة مع كل منهما

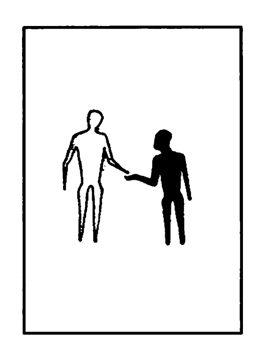
الجماعة المتوسطة كحاجز بين
الجماعتين وعلاقة عدائية مع كل منهما



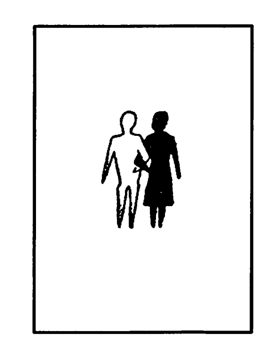
الجماعة المتوسطة مع ميل
إلى تفضيل البيض



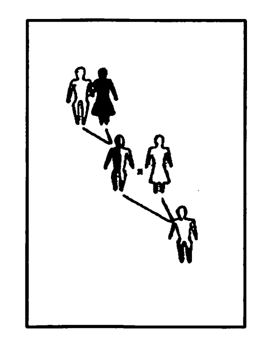
اعتراف بفصل الأقلية لمس
الكتف بحنان ظاهرة الغلام



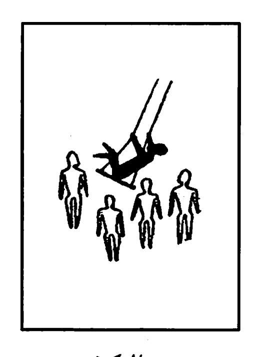
المعونة – اليد العليا
واليد السفلى



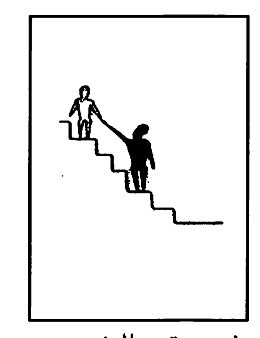
امتصاص فردى



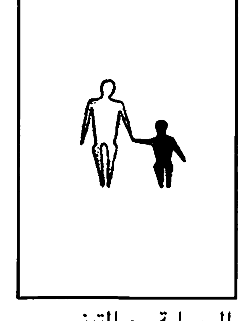
امتصاص لتخفيف
العامل العنصرى



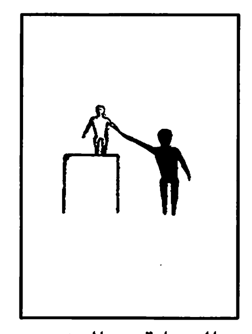
التكيف



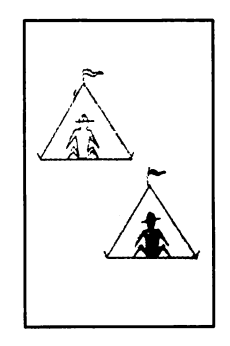
رفع مستوى العنصر
والحالة الاجتماعية



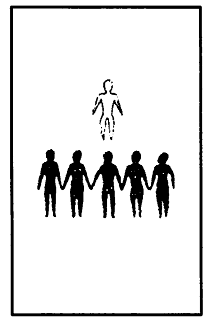
الوصاية مع التبنى –
ظاهرة الغلام



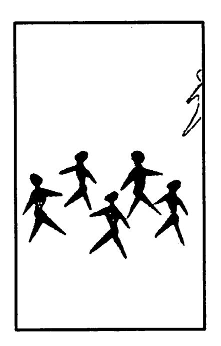
الوصاية مع التبنى –
ظاهرة الغلام



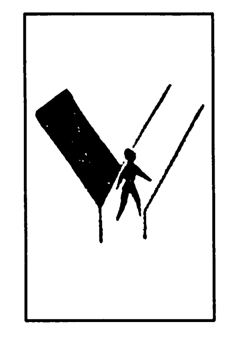
العزلة



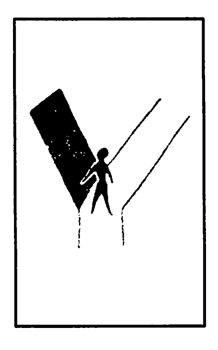
اتفاق ضد البيض



انتهاء
معارضتهم للبيض



ارتفاع العنصر مع
وجهة ملونة



تحسين العنصر مع
وجهة بيضاء

الارتياب والحساسية لما يربطه بالأقلية، أو عند محاولة غير ملائمة للاتصال به والتقرب إليه بأن يخاطبه فرد بلغة جماعة انحدر منها وهو ينكرها. وهو أيضا شديد الارتياب إذا ما خوطب بشيء من التواضع المبنى على الصداقة. ومركب النقص هذا وغيره من الظواهر التى تنتج عن هذه الظروف قد بحثت من قبل. وكثيرا ما يرد من يعامل معاملة تنطوى على التمييز بأنه يعامل هو غيره نفس المعاملة مما يدعو إلى أن تسىء كل أقلية غيرها من الأقليات. وكل جماعة يؤلمها التمييز وتتنابذ مع كل إنسان من غير هذه الجماعة مع محاولتها جمع مؤيدين لها فى حركة المقاطعة التى تقوم بها ويرى "سمبسن". و"ينجر" Simpson – Yinnger أن هذا عدوان فى غير موضعه وأن كراهية الإنسان لغيره هى إحدى الوسائل التى تنجيه من كراهية نفسه.

وخطر هذه الريبة التى ذكرناها فيما سلف لايزول ومن مضار الأذن الثالثة أنها قد تحس بالتمييز حيث لايوجد هذا التمييز. وهكذا تخطىء الأذن الثالثة حيث يضللها ما تسمعه وتنقلب الريبة الحقيقة التى نفهمها إلى ريبة وهمية وحاجز لونى وهمى. وسواء أكانت هذه الريبة لها ما يبررها أولا، فإن عضو الجماعة المتوسطة يكون فى مركز ضعيف جدا نظرا إلى أن التمييز فى اللون هو فى الوقت نفسه تمييز فى الحالة الاجتماعية. وفوق ذلك تبقيه جماعة أحد الوالدين المتفوقة فى نفس طبقته وأن الارتباط الدائم بين فاصل اللون وفاصل الطبقة فى غاية الوضوح نظرا إلى أن معظم أعضاء الجماعة المتوسطة ينشئون من الاتحاد بين أم من أهل البلاد ورجل أبيض من طبقة منخفضة قدم إلى هذه البلاد إبان عزوبته. بقيت كلمة تتعلق بالتزاوج الأجنبى عنصريا واجتماعيا وهو ما يسميه "فرزييه" Frazier «الهجين الثقافى» وهو فى رأى "روبرت بارك" Robert Park «الرجل الهامشى» Marginal man الذى حكم عليه القدر أن يعيش فى مجتمعين وبين ثقافتين ليستا مختلفتين فحسب، بل ثقافتين متعارضتين[1].

(١) ليس هذا مقصورا على غير البيض فإن هذه ظاهرة ترى فى أى مكان يرتفع فيه أحد أفراد الطبقة الفقيرة فى السلم الاجتماعى إلى أن يصير عضوا فى طبقة مغايرة تغيرا كاملا عن طبقته الأصلية.

وهناك اعتقاد بأن هؤلاء المختلطى النسب بحكم عزلتهم عن مجتمع البيض لديهم الاستعداد لأن يصبحوا وطنيين بسبب عدم اندماجهم فى جماعة البيض. ولربما كان كرههم الأعمى لجماعة البيض سببا فى أن يصبحوا متفرقين، وهو ماليس فى صالح البلاد التى يدينون لها بالولاء(١).

ثم لنا كلمة فى المرأة الهامشية «والتى لم يكتب عنها أحد فيما نعلم فهى أشبه بالرجل الهجين ليس لها موقف محدد، بل موقفها أكثر دقة إذا كانت تخادن الرجل الأبيض فهى لنفس الأسباب التى تتعلق بالرجل تفضل الزواج برجل أبيض ولكن فى طريقها لسوء الحظ حجر عثرة فهو قد قدم من وراء البحار فى خدمة الجيش أو فى خدمة إحدى الشركات وقد يحب إحدى الملونات لعدم وجود إحدى بنات جنسه، وهو فى الغالب لا يتزوجها بل هو محرم عليه الزواج فى سنوات عمله الأولى، وهكذا ينشأ بين الاثنين علاقة طويلة الأمد لا مفر منها أن تنتهى بمأساة عندما يذهب إلى بلده فى إحدى الإجازات ويعود ومعه زوجة من بنات جنسه، وستكون الزوجة التى قدمت حديثا من أول الأمر على غير وئام مع منافساتها اللاتى يفقنها عددا وينجم عن هذا عدم احتمال الزوجة البيضاء لمثل تلك المرأة، وستكون معاملتها لها منطوية على قدر كبير من التمييز العنصرى، ونظرا إلى ما حدث اليوم من تطور اجتماعى تغير موقف المرأة الهجين أخيرا وخفت صيحتها القديمة التى ذكرها الشاعر "كبلنج" «عد إلى مندلاى».

(١) مما يجب ملاحظته أنه من النادر أن كان أحد أفراد الطبقة المتوسطة يوما ما محررا لبلاده، وقد يكون ذلك راجعا إلى أن هؤلاء الرجال الهامشيين الذين ينتقلون إلى طبقة أعلى يلتحقون بالبيض وينتهى بهم الأمر إلى عدم الخروج عليهم، وعندما يكون أحد أفراد الطبقة المتوسطة قاتم اللون فقد يفضل الانضمام إلى جماعة الأب القاتمة ولكن هذه من جانبها تفضل أن يكون محررها «نقى الدم».

ويجب هنا أن نذكر استثنائيين أولهما "بوليفار" Bolivar الذى لم تكن له أبوة أشد منه سمرة ذات أهمية، والثانى "جوزى ريزال" Jose Rizal محرر الفلبين.

وفى بعض البلاد كأندونيسيا يمسك بزمام الحكم العنصرى القاتم البشرة فى غير وئام مع السكان البيض، وهذا الموقف الثالث الذى ذكرناه فيما سبق، وفى مثل هذه البلاد تنقلب حالة أصحاب الأنساب المختلفة التى كانت مرضية من قبل إلى حالة غير راضية، ويصير مركز الجماعات المتوسطة أصعب كثيرا مما لو كانت العلاقة بين جماعات الأب طيبة.

وفى هذه الحالة لا سبيل للملونين إلا أن يتحدوا مع أكثر الجماعات شبها بهم، وعلى كل حال إن عضو الجماعة المتوسطة هو الذى يتلقى الضربات وهو الذى يقف حائلا بين الجماعتين المتنازعتين (فى هذا الموقف بخاصة) والأوروآسيويون مثلا يشعرون أنهم فى موقف حرج أوجدهم فيه جماعة آبائهم البيض ومع هذا فجماعة السود لا يقبلونهم. يدل على هذا حوادث الطرد الكثيرة من بلاد إندونيسيا.

ومن الجائز أن ينتهز الفرصة عدد كبير من الجماعة المتوسطة فيتخذون قرارًا إجماعيا بالانتماء إلى أحد الفريقين، وأفضل مثل لتلك السياسة التى اتبعتها الجماعة الهندية الأوربية فى جزائر الهند الشرقية بعد خروج الهولنديين منها[١] وفى سنة ١٩٥١ عندما كان على كل هندى أوربى أن يقرر انتماءه إلى أحد الجانبين فيقرر أن كان رعية هولندية أو مواطنا إندونيسيا غيرت الجماعة سياستها تغييرا كاملا بعد أن كانت من قبل تؤيد الهولندية.

ومن اليسير أحيانا أن تقف الجماعة المتوسطة موقف الحائل بين فريقى الأبوين بأسلوب آخر. ففى البلاد التى يكون زمام الحكم فى أيدى البيض يكون من نصيب

---

(١) ملحوظة : الهندوأوربيون Indo Europeans أو الهندوألمانيون Indo-Germans كانوا هم الآريين Arvans الذين نزحوا من أسيا إلى أوروبا بينما الهندوأوربيون فى جزائر الهند الشرقية التى كانت تابعة لهولندا هم أوروأسيويون Eurasians .

الملونين الذين امتصتهم الجماعة بعض الوظائف الحكومية وهؤلاء فى هذه الحالة يؤدون عمل وسيط السلام بين الفريقين وفى نفس الوقت هناك مزية كبرى لوجود هذا الحائل فإنه يفيد الحاكمين البيض من ناحيتين : الأولى أنه يعطى الوطنيين قسطا من الاستقلال الذاتى يبين مدى أهليتهم للإدارة، والثانية أن هذا الفريق يصبح مسئولا عن كل ما قد يوجه من اللوم إلى الحكام البيض.

٢ - الجماعة المتوسطة فى بلادها:

إلى هنا كان كلامنا منصبا على الأهالى الملونين من الجماعة المتوسطة وهم أقلية فى محل ميلادها، وهذه الفقرة ستتناول وصفا لموقفها فى البلاد التى لها فيها المقام الأول من جميع الوجوه بينما تتراجع منزلة جماعة الأب إلى مكانة «ثانوية» وأكثر الأمثلة وضوحا لذلك نجده فى أمريكا اللاتينية.

وقد كان المتوقع أن يكون هذا الوضع هو نهاية لمشكلة الجماعة المتوسطة، ونهاية كذلك لجميع حالات التمييز. ولكن الأمر ليس كذلك لسوء الحظ وحيث لم يصبح لحاجز اللون أى أثر فى وحدة الناس أو التفرقة بينهم، ظهرت مسائل أخرى إحداها تدرج اللون، وهذا لا يشطر الناس إلى سود وبيض أو بين بيض وغير بيض، إنه يفصل بين أشد الناس سمرة وأخفهم سمرة فى المجموعة الواحدة أو فى الأسرة الواحدة، وفى اللغة الإسبانية كثير من الألفاظ الدالة على التدرج اللونى. فلفظ يدل على قليل السمرة، وآخر على متوسط السمرة مع نعومة الشعر، وثالث للون الأسمر مع تجعد الشعر، وآخر للون الأسمر، وآخر للون الأسود مع تقاطيع الرجل الأبيض، وآخر للون الأسود.

وفى المستعمرات الفرنسية ألفاظ دالة على مثل هذا الاختلاف[1] أن هذا التدرج المنتظم فى اللون يذكر الإنسان بالهندوكية التى فيها "السودرا" sudra ذوو لون أسود،

(١) ذكر المؤلف هنا تفاصيل هذه الاسماء الإسبانية والفرنسية   المراجع.

و"الفشيا" Vaishyas ذوو لون أصفر داكن، و"الكاتريا" Katrihyas ذوو لون أحمر داكن، و"البرهما" (رجال الدين) بيض والقديسون أكثر بياضا. ولو أن الأمثلة الأولى تتعلق بجماعات مختلفة الأجناس إلا أن الأمثلة المستقاة من النظام الهندى مستمدة من مجموعة من السكان من جنس واحد.

ولقد أصبح واضحا أن حاجز السمرة من المحتمل أن يؤدى إلى حاجز طبقى فيه أشد الناس سوادا هم "السودرا" (المنبوذون) أو "الباريا" وهم دون "السودرا" ولفظ "كاستوس" Castus معناه «نقى» هو لفظ مناسب جداً؛ لأن هذا المجتمع الذى يقر نظام الطبقات يخشى أن يكون الأبيض فيه شيء من التلوين، ولذوى اللون القاتم طريقة لأن يصبح أولادهم أقل سمرة وذلك بالزواج المختلط. وهذا يعنى من جانب واحد على الأقل أن الدخول فى إحدى الطبقات أسهل من الطريق الذى سلكه الهندى، لأن سبيله الوحيد هو الموت وهو أفضل سبيل لبقاء العنصر نقيا.

وفى الظروف التى ليس لفاصل التدرج اللونى أى أثر توجد أسس أخرى يعتمد عليها أكثرها انتشارا فاصل الشعر الذى يفرق بين الشعر المجعد والشعر المستقيم. وقد يستعمل بدلا من ذلك الشعر «الجيد» والشعر «الردىء»[1] والذين ليس شعرهم مجعدا يستطيعون الانتساب إلى الدم الهندى أو اللاتينى أكثر من ذوى الشعر المجعد وقد يستأثرون بهذا النسب دون غيرهم من الشعوب. ومن المحال – مع ذلك – التنبؤ بأن شخصا بعينه من الجماعة الأفريقية المتوسطة سيولد بشعر مجعد أو بشعر مستقيم، بل من الخطورة حتى مجرد التخمين. ففى هذه المجموعة أسر بعض أبنائها ذوو بشرة قاتمة وشعر مستقيم والبعض الآخر ذوو لون أقل سوادا مع شعر مجعد. والحالة

(١) يدعو الإندنيسيون ذوى الشعر المستقيم سكان غانة الجديدة «الرؤوس المتغضنة» أو "البابوان" Papuans ولدى أهل المغرب، ليس لفاصل الشعر ولا لفاصل اللون الأهمية التى لها عند غيرهم، ولكن الواقع أنهم كانوا أميل إلى الاختلاط بالآسيويين منهم إلى الأفريقيين ويبدو أن فاصل الشعر كان معروفا فى اليابان وكان ذوو الشعر الكثيف يدعون "الأينو" Ainu ويربطونهم بالقرود العليا. والهنود يفرقون بين نماذج الشعر المختلفة Kesa "كيزا" وذلك فوق ما لديهم من التفرقة بسبب اللون Varna

الأولى مفضلة، وقد يحدث أن الرجل الملون صاحب الشعر المستقيم يستطيع الادعاء بأنه من سلالة الهنود النقية أو سلالة الهنود الحمر، وعلى هذا يتجنب الوجود فى مجتمع عام مع أخيه ذى الشعر المجعد. وكثير من الناس يولون أهمية خاصة لفاصل الشعر حتى أنهم يعملون على تحويله إلى شعر مستقيم، وبعد أن أمكن ذلك انقلب الأمر من تفضيل اللون الأسمر مع نعومة الشعر على اللون الأقل سمرة مع الشعر المجعد إلى تفضيل الثانى على الأول.

٣ - الجماعة المتوسطة فى بلد الأم:

خلافا لبلاد جماعة الملونين لا تكاد توجد مشكلة للجماعة المتوسطة فى البلد الأم أى فى البلاد التى ينتمى إليها الأبيض من الوالدين لأنها أقرب إلى جماعة الأبيض من الوالدين ولكن الجماعة المتوسطة لا تزال تمثل جماعة منفصلة (ولهذا فهى ثانوية)، وفى الأحوال التى يكون أحد أفراد الجماعة المتوسطة قاتم اللون يدعى أحيانا أنه مولود فى أحد أقطار جنوب أوربا أو ينتسب إلى بلاد لم تكن مستعمرة من قبل وبينما لا يرضى أحد الأوروآسيويين من إندونيسيا أن ينسب إلى إندونيسيا فأهالى الأنتيل وسورينام يرضيهم كل الرضا أن ينسبوا إلى البلاد التى ولدوا فيها والتى تحمى كل أفرادها دون تمييز أو تفرقة بين جماعة كل من الوالدين.

بعض الملاحظات العامة:

زيادة على ما ذكرنا عن مركز الجماعة المتوسطة فى بلاد عديدة هناك جوانب عامة جديرة بالذكر. أن ما قيل عن فاصل اللون والشعر يدل على أن الوحدة ليست قوية فيها. إن وحدة الجماعة ضرورية فى كل مجتمع وهى موجودة فيه دائما على وجه من الوجوه، نجد الدليل على هذا فى كل مجتمع وفى كل جماعة دينية وفى كل ناد من





نموذج لاقتباس اللباس الغربى





نموذج لاقتباس اللباس الغربى

أندية الشباب. إن الأسرة أصغر الجماعات وأقواها وهناك حكمة صادقة تنص على أن الطيور على أشكالها تقع، بل إن البجع يذهب فى هذا المعنى إلى مدى أبعد؛ حيث يجتمع حسب لون ريش كل جماعة منه. ومن سوء الحظ يقل التماسك الجماعى فى الجماعات المتوسطة وهذا نلحظه سواء فى بلد الأب الأسود أو فى بلد الرجل الملون نفسه حيث الملونون الأقل دكنة يتجنبون أحيانا لقاء مواطينيهم الأشد منهم دكنة أو العكس كما يحدث فى أندونيسيا. ودرجة اللون - كما ذكرنا من قبل - كثيرا ما تحدد حالة الفرد الاجتماعية، وأنها لنزعة طبيعية - ولو أنها تدعو للأسف - أن يحاول الفرد إذا كانت حالته أسمى أن يتجنب العار الذى يلحقه بمخالطة من هم «دونه». وقريب من هذا ما يحدث فى بلاد كل أهلها من البيض ولكنه يجرى فى شىء من الخفاء لأن لون البشرة واحد لدى الجميع. وفى الأحوال التى تدل ملامح الفرد الكثيرة دلالة واضحة على الجماعة التى يفضل عدم الانتساب إليها تحدث ظاهرة «كره النفس»؛ وكره النفس هو التعبير عما يشعر به أحد أفراد أى جماعة من كره كل ما يذكر بأصله العنصرى فى الوسط الذى يعيش فيه، فإذا ما ظهرت أية دلالة على عنصره فى ملامحه فهى عادة ترد إلى مولده فى بلد من جنوب أوربا أو أى بلد آخر غير مستعمر حتى يدخل الفرد فى زمرة البيض على قدر ما يستطيع من الإقناع، حتى إذا نجح فى محاولته فإنه ينقلب بعنف ضد جماعة أضعف الوالدين. ذكر "بالانديية" Balandier فى دراسته للسود فى برازافيل فى الكونجو أن الرجل الملون يحتقر ويبرء من أمه الأفريقية إذا ما وصل إلى مركز كبير. ولسنا فى حاجة إلى دليل آخر على أن هذا كله ليس مرده إلى اللون وحده الذى لا يعدو أن يكون «شيئا غريبا تحت الجلد»، ولكنه يرد إلى خواص عنصرية أخرى.

وهناك ظاهرة أخرى يمكن اعتبارها إحدى صور كره النفس، فمن الجائز أن ينشط أحد الأفراد نشاطا عظيما ضد هذا الموضوع أو ذاك ليكون من ذلك النشاط ستار يخفى عنصره أو وطنه.

وبعد فمن يستطيع أن يتهم أحد المتحمسين ضد الزنوج بأن الدم الزنجى يجرى فى عروقه؟

ويكفي ما ذكرناه خاصا بنقص التماسك الجماعي في الجماعة المتوسطة والصراع السيكلوجي بين ضمير الجماعة وتماسك الجماعة. ويجدر بنا بحث شعور الوحدة لدى جماعة أحد الوالدين البيض في الإقليم المدارى. فالبيض على خلاف الجماعة المتوسطة ينزعون دائما إلى الوحدة. وهذا بدوره قد يؤدى إلى كثير من المضاعفات.

وفى المستعمرات يكون البيض عادة دولة داخلة الدولة(١) وهذا يضمن حماية مكانة الرجل الأبيض وهو ما يجعله غير ميال لقبول أجنبى فى الجيش، ومن هذا يتضح أن الهدف الأساسى لهذا التماسك هو دائما المحافظة على المكان الذى يتعرض للهجوم والانتزاع بمجرد زوال السيادة، ومن الطبيعى أن الذكريات القديمة لما حدث فى البلاد التى قدموا منها تدعو إلى تجمع المهاجرين، ولكن ذلك بدوره يدعو إلى عدم اندماجهم التدريجى فى الوسط الجديد، وإذا ما كان التضامن الجماعى بين مواطنيه يحول دون اندماجه حتى بين الجماعة التى ينتمى إليها لاختلاف الطبقة أو التعليم أو حتى للسن فهو يرجع إلى تأثير المناخ المدارى وينتهى إلى كره هذا الجزء من العالم الذى لم يقبله ويتميز فى التضامن الجماعى جانبان:

أولا: يقوى التضامن إذا وجدت جماعة كبيرة أو جملة جماعات صغيرة. إن الضرورة تقضى بتكوين جبهة قوية للوقوف أمام عدو مشترك كالرجل الأبيض، وهذا ينطبق أيضا على مجموعة العناصر غير البيضاء بشرط وجود عدو مشترك، ولولاه لما عمر الاتحاد بين هذه المجموعة طويلا. وفى إندونيسيا انفض كل اتحاد بين الملونين بعد انتهاء الحكم الهولندى بمدة وجيزة. ولقد حاول الرئيس "سوكارنو" أن يوقف هذا التفكك بدعايته الخاصة بغنيا الجديدة حيث كان الغرض منها الإيهام بأن هولنده لا تزال العدو الواجب قهره ولكن المتعلمين من سومطرة وبورنيو لم يقتنعوا بالصيحات

---

(١) ولهذا السبب يرى ولز Wells أن عدم التعاون بين غير البيض والبيض نشأ من المقابلة بين الأبيض وغير الأبيض.

المسموعة من جاوة لأن الإندونيسيين لم يكونوا ضد البيض ولكنهم يعضون الحركة الوطنية الإندونيسية.

والجانب الثانى: أن هناك احتمالا مستقلا بأن التماسك بين جماعة الأب ذى اللون الأدكن قد يلاقى نفس الصعوبات الناجمة من التفكك كما فى حالة الجماعة المتوسطة.

وعلى أى حال - وهذا ما كتبه "ألان برنز" Allan Burns :

«لعل أخطر عيب للزنجى المتعلم - من وجهة النظر إلى تقدم قومه- هو افتقاره إلى الرغبة فى التعاون وعجزه عن الانقياد طويلا إلى رئيس من أبناء جنسه وتكبره الذى يثير فيه الغيرة ويدفعه إلى نقد زميله الزنجى ومحاولة تعويقه إذا ما رآه يرتفع بضع درجات أعلى منه فى سلم الثقافة والتقدم». ومع هذا فهل عدم التماسك هذا من خواص الملونين؟ ما على المرء إلا أن ينظر إلى الفرقة فى أوربا.

الجانب الثقافى من الصراع العنصرى:

كثيرا ما يحدث صراع ثقافى كما يحدث صراع عنصرى. وسببه أن الرجل الملون سواء أكان فى بلده أم فى الوطن الأم عندما يلقن أساليب المدينة الغربية قد يجد مشقة فى تمثلها جميعا مما قد يدعو إلى الكفاح. والرجل الهجين المثقف سواء أكان أفريقيا قحا أم أسيويا قحا وهو ما يسميه "ستونكوست" Stonequist «الهجين المثقف غير المندمج» قد صار كذلك لطول اتصاله بالمبشرين فأضفوا عليه صبغة متباينة القوة من المدينة الغربية، ومثل هذا الرجل يسمى بالرجل صنع المبشرين Missionary mape، وفى كلامه تكلف وله ولع بأن يعد نفسه من المبشرين، ونجد صنواله الرجل «صنع الجيش» الذى يستمد صبغة مشابهة من المهنة العسكرية. وبينما تكون عبارات الأول ألفاظا منتقاة يتكلم الرجل المصنوع فى الجيش بخشونة ويستخدم الألفاظ النابية التى تعودها

وقبلها. وهذا قريب مما يسميه "أولبورت" Allport «ادعاء الوضع الاجتماعى» وهى محاولة الفرد بلوغ حالة اجتماعية من طريق حديثه أو لباسه أو من طريق التصرفات العجيبة.

وكثيرا ما يظن - وهو خطأ محض - أن الهجين المثقف إذا وضع إحدى قدميه فى أحد المعسكرين والثانية فى المعسكر الآخر فقد نجح بطريقة ما فى أن يجمع كلتا الحضارتين، والحقيقة المجردة أن أمله فى الجمع بينهما لم يكن إلا حلما كاذبا، وفى أثناء الصراع الذى يكون بين جنبى الفرد ستبعده الحضارتان معا فعلا من ثقافته ومن بيئته بل ومن طبيعته. وهكذا يصير المولود الذى جاء من «تزاوج حضارتين» ربيبا غير متزن الثقافة. ويجب التفرقة بين هذه الحالة وبين اكتساب جوانب من ثقافة أخرى مع احتفاظه بثقافته الأساسية، وإذا ما امتزجت الديانات أصبحت خداعا، ففى إسبانيا مثلا عاد اليهود والمغاربة إلى دياناتهم بعد عدة قرون من اعتناق المسيحية، وبعد الحرب العالمية الثانية ارتد كثير من الأسيويين عن ديانة الرجل الأبيض بمجرد ذهاب سلطانه.

وقد تسوء الأحوال عندما يحاول شعب مختلط النسب أن يختار بين ثقافتين، فإذا ما اختار أحد الجماعة المتوسطة مثلا ديانة جماعة الأبيض من الوالدين بينما هو يعيش بين الجماعة الأخرى فإن متاعبه العنصرية ستزيد من متاعبه الثقافية، بل سيكون عبئه أثقل إذا كانت الثقافة الغربية مقرونة بسلطان الحكم الغربى[1] غير المستساغ.

---

(١) قارن أيضا كشمير حيث تقف بين الهند وباكستان حسا ومعنى، وشعبها مسلمون رغم سنوات طويلة من الحكم الهندى والسيادة المسيحية، ويلاحظ كذلك أن موقف إسرائيل شبيه بها فهى جيب غربى غير مسيحى فى المحيط الإسلامى. وهذه الجماعات المتوسطة فى هذه المساحات الشاسعة صغيرة نسبيا نظرا إلى قوة الديانات الكبرى التى تقاومها وليس لها مكانة كوسيط فى المنطقة. وفوق ذلك من السهل أن تنسب إلى جماعة أحد الوالدين نظرا لأن البشرة تختلف قليلا أو لا تختلف كلية فى هذه المناطق.

المشكلة الأكثر تعقيدا فى البلاد التى فيها أكثر من عنصرين أو جماعتين ينتج عنها كثير من الجماعات المتوسطة:

توجد بلاد كأمريكا الجنوبية مثلا يعيش فيها فى بوتقة واحدة هنود وأفريقيون وأوروبيون وآسيويون وجماعات من المهجنين نتجت عن تزاوج الآسيويين. وفى جنوب أفريقية عدد كبير من الآسيويين والبريطانيين والأفريكان[١] والأفريقيين. وكما فى المنطقة الكاريبية يكون الآسيويون أقلية، ومع هذا فهم غير مرغوب فيهم حتى بين الجماعات المتوسطة والهنود فى كينيا الآن أقلية سائدة، ويخشى أن يحلوا محل الأوربيين. ولأمر ما يفضل الأفريقيون الأوربيين، وكثيرا ما يقع النزاع بين الهنود والأفريقيين، وفى إندونيسيا للصينيين أهمية خاصة فإن الجماعة المتوسطة فى إندونيسيا تشمل غير الأوروأسيويين، الهنود الصينيين[٢] والصينيين الأوربيين كما تشمل فى الجيل الثانى، الصينيين الهنود الأوربيين وغيرهم من الجماعات المتعددة العناصر. وفى جنوب شرق آسيا مشكلات الجماعات المتوسطة معقدة كذلك، ويجب أن تعالج كل جماعة على حدة، ووضع الجماعة المتوسطة لا يتعرض إلا لأقل الضغط فى أقطار كهاواى حيث هناك قدر كبير من التسامح العنصرى.

ترقية الجنس وتحسينه:

إن إحدى الآثار الهامة لفاصل اللون وفاصل تدرج اللون وفاصل الشعر ومحاولة الناس تحسين خواصهم الذائعة، وهذا يمكن تنفيذه بطريقة مصطنعة أو بالتزاوج مع

(١) اسم للهولنديين المستعمرين كان يطلق عليهم من قبل "البوير" أى الزراع.

(٢) الهندى الصينى فى إندونيسيا هو سلالة الصينى مع الإندونيسى أو الملايو أو الأبيض، أو هو السلالة الثانية للبيض مع الإندونيسين والصينيين، والصينيون لهم موقف غريب فمن اندمج منهم بحكم الزمن فهو أفضل بكثير من الصينيين السنك sinkeh chinese الذين يعانون نفس المشكلات التى يعانيها البيض.

البيض. وهذا الأسلوب الذى يقتضى «التبييض» مناقض على خط مستقيم لمحاولة رفع حالة الجنس فى حدوده الطبيعية، والفرق الأساسى بين المنهجين: أن الأول يحاول إخفاء الأصل العنصرى إما بأسلوب مصطنع أو بخلق عنصر مختلط، بينما يزهو الثانى بنسبه ويستمسك به مع بذل أعظم الجهود فى الوقت نفسه للحصول على ما للرجل الأبيض من وضع اجتماعى. وغنى عن القول أن النظريتين قد تلتبسان بمنتهى السهولة. فإذا ما تطلع الرجل الملون فرأى المستقبل فى جانب الجنس الغريب فقد يهمل جنسه هو إهمالا تاما بل قد يعده حجر عثرة فى سبيله، ومن الممكن أن يسبب هذا كرهه لنفسه وهو ما وصفناه فى فصل سابق. وكثيرا ما يكون الزنجى - الذى ينحو النحو الآخر - فخورا بعنصره وينجح فى الوصول إلى الوضع الاجتماعى الذى يهدف إلى بلوغه. يمثل هذا الشعور تلك المجلة الدورية الشهيرة الزنجية فى الولايات المتحدة التى تسمى «أبنوس» Ebony وربما أشكل الأمر إذا دخل عامل الدين. فإذا وافق أحد الملونين مثلا على أن تعمده الكنيسة ليصير بذلك أحد أفراد الجماعة البيض، فهذه المحاولة لتحسين العنصر قد تنقلب إلى نكرانية فلا يكون تحوله إلى الدين الجديد إلا خطوة ضرورية يصبح بها أحد أفراد الجنس الذى يرى أنه أسمى من عنصره. وقد يعتنق الزنجى النصرانية لاعتقاده أنه فى حاجة إلى دين خير من الوثنية. إن الدافع له إلى رفعة عنصره هو الرغبة فى المساواة بجاره الأبيض لا دعواه بأنه أحد أفراد الجنس الأبيض.

وليس للتقدم العنصرى أهمية كبيرة مادام الباعث عليه فرديا فإذا صار حركة عامة فلابد من التصادم بالجماعة التى لا تسهم فى التقدم وخاصة لأن كل من يقف فى طريق الحركة لابد أن ينحى جانبا بلا رحمة، وهذا لاشك سبب لاعتبار الحركة حركة مدمرة، وقد سبق القول أن هذه الحركة تجد أعوانا من البيض الذين يرجون النفع السياسى من ورائها وتكون النتيجة حصول السود فى جهادهم على معونة مبذولة فى غير إخلاص.

ومحاولة تبييض الجنس أو آسيويته تهدفان إلى تحسين الجنس أو تغييره ويمكن أن نقسمها إلى قسمين الأول: من طريق النسل وذلك بالزواج المختلط، والثانى: بإخفاء الجنس بالطرق المصطنعة حيث يعالج الجلد والشعر خاصة معالجة صناعية تجعل الفرد يبدو أكثر بياضا أو تجعله فى بعض الأحيان أشبه بالآسيويين. وعيب الطريقة الأولى أن الأبناء لا يخفى انتماؤهم إلى عنصرين مختلطين وعلى ذلك لا ينتمون انتماء كاملا إلى أحد أصليهما.

، وهذا يدعو إلى ظهور جماعة خارجة لها موقفها المتميز بما يصحبه من توتر، والواقع أن هذه الطريقة تنجح إذا توالى السير على منوالها عدة أجيال متتابعة.

وبين الهنود الأفريقيين فى كينيا تلاحظ ظاهرة عجيبة جديرة بالذكر، أن استعداد جسم الإنسان الطبيعى أن يتكيف حسب البيئة المحيطة به ليدعو إلى أعجب تطور عنصرى. وهكذا نرى فى بعض أنحاء كينيا مثل كيسومو عددا كبيرا من الهنود وهم لا يتزاوجون من الأجناس الأخرى غالبا كما يفعل اخوانهم فى تنجانيقا. ومع هذا ففيها عدد من الأبناء ذوى العنصر المختلط، وهم عادة من آباء هنود وأمهات أفريقيات وهؤلاء الابناء فيهم شبه ملحوظ بأمهاتهم حتى يبلغوا الثانية عشرة، حتى إذا بلغوا سن الرشد أدركوا أن عنصر آبائهم أهم من عنصر أمهاتهم فيأخذون تدريجيا فى محاكاة آبائهم فى مظهرهم، ومن هنا يتضح أن ظاهرة معرفة العنصر تلعب دورا مهمًا فى المسألة العنصرية.

وهناك ظاهرة مشابهة فى حالات التزاوج الكثيرة الانتشار بين الأفريقيين والعرب، ولكن لا ترى هذه الظاهرة بتاتا عند زواج الهنود بالعرب، ومن أسباب هذا أن شعر كلا العنصرين مستقيم غير مجعد.

وفى أمريكا الجنوبية يحاول كثير من ذوى الأنساب المختلط Mullatto أن يظهروا بمظهر الإسبانيين أو المستيزو Mestizos، وهذه الحركة تدخل فى إحدى صور التبييض، وفى الوقت نفسه تبذل أكبر الجهود لإخفاء أسلافهم الأفريقيين، وكثير من

سكان "جواديلوب" مثلا يدعون أنهم قادمون من "مارتنيك" لأن أهالى هذه الجزيرة فيهم نسبة أكبر من دم البيض، وهذا الأمر من الصعب أن تميزه من الناحية العنصرية أو من ناحية البنية حين يدعى أحد أفراد المنطقة أنه قادم من منطقة أخرى أكثر ثراء[1] ومن أغرب الأمور أن يخجل الزنجى فى أمريكا إذا أصيب بأحد الأمراض المتوطنة فى البلاد على أساس أنه مرض يصيب الفقراء[2] وهذا بطبيعة الحال لا علاقة له بالحرمة التى تتعلق بتجنب ذكر أسماء بعض الأمراض. ومحاولة جعل الشعر مستقيما قد يعد فى كثير من الأحيان محاكاة للشعر الآسيوى بشرط أن يكون الباعث الأساسى له اتباع (المودة) فى تصفيفه اقتداء بالغرب لا مجرد الابتعاد عن الموجة السائدة عند الغربيات. وفى هذا تستعمل الامشاط الساخنة أو المحاليل المختلفة التى تذهب بتجعد الشعر وأحيانا تستعمل الوسيلتان معا وقد تستعمل الدهون. وعند ذلك يصير الشعر مستقيما دائما. وفى أثناء هذه الإجراءات لا يكون الشعر تام الاستقامة ولكن يجب أن يوهم أنه كان مستقيما ثم تموج من أثر الماء.

ومن العجيب أن الهنود يودون أحيانا أن يكون شعرهم مموجا بينما يطلب الزنوج أن يكون شعرهم مستقيما إلا موجة أو اثنين حتى يبدو الشعر على النمط الهندى.

ومن أعجب محاولات تغيير العنصر المصطنعة ما رآه مؤلف هذا الكتاب بين أفراد الحرس الكورى فى جنوب المحيط الهادى فقد طلبوا من الأطباء الذين كانوا ضمن المسجونين «دواء أبيض» يجعل بشرتهم أكثر بياضا ولما رأوا أن كثيرا من المسجونين البيض عملت لهم عملية الختان طلبوا إجراء هذه العملية لهم. لقد عدوا هذا دلالة، على المكانة بل على «اللون» يهبهم الإحساس بأنهم أقرب إلى الغرب من زملائهم من الحراس أو إخوانهم المواطنين.

(١) هناك ظاهرة شبيهة بهذه ترى فى الجماعات الشديدة الديمقراطية؛ عندما يحاول أفراد الطبقة الدنيا فى حديثهم عن أفراد الطبقة العليا أن يذكروا أسماءهم الأصلية دون تكلف يوهمون السامع بوجود الصداقة والمساواة بين الطبقتين.

(٢) قارن مرض البيض الفقراء بالحكة أو انتشار القمل فى أجسامهم مما يستنتج منه قذارة أجسامهم مع الخوف من ذكر أحد الأمراض كالسرطان مثلا، أو تحريم ذكره إطلاقا.

وفى أمريكا كثيرا ما يطلب الزنوج من المصورين إظهار صورهم أكثر بياضا ما أمكنهم ذلك. وفى الصحف إعلانات منتظمة عن دهون تضمن مظهرا أفتح للجلد واتجاها سريعا نحو البياض[1] وفى غرب أفريقية سمعت أن مرضى الملاريا يفضلون "الأتبرين" أو "المباكرين" على "النيفاكين" Atebrine-mepacrine -nivaquine لأن العلاجين الأولين يصبغان الجلد باللون الأصفر مع تحويله إلى لون أفتح تدريجيًا لكن بينما أنا أكتب هذا القول فان الزمن يغير صحته، ومما كتب "سيذولى" Sithole أن الوطنى كان فى العهد الأول يرى التشبه بمن قهره ويطلب رحمة الآلهة. وكان مما يخجله أن اسمه ليس من الأسماء الأوروبية ولكن الأحداث أخذت تقوض أسطورة الرجل الأبيض فإن المؤهلات والكفاية جعلت للون المرتبة الأخيرة وكان لها المكانة الأولى.

وفوق ذلك فإن «حالة تغيير اللون» tatus chamelionism هى لا مراء غير مقصورة على الملونين فما علينا إلا أن نذكر رغبة البيض فى أن تسمر جلودهم إظهارا لما هم فيه من ترف مكنهم من قضاء وقت الراحة على شواطىء البحار وملاعب الرياضة، والواقع أن السوائل الحديثة المستعملة لصبغ الجلد لاعلاقة لها مطلقا بالصحة وهى لاتستعمل فى أغراض التجميل- ومع كل فلا فرق فى المبدأ بين من هم على أحد جانبى فاصل اللون، وبين من هم على الجانب الآخر.

الوشم والختان والحجاب :

لما كانت إحدى محاولات التبييض شبيهة بسائر المحاولات الأخرى التى تبذل للدلالة على أن الشخص هو أحد أعضاء جماعة بعينها باستعمال شارات خارجية لا مندوحة من بضع كلمات فى هذا الموضوع.

(١) تفرق قبائل الأيبو Ibos وكثير من القبائل التى فى غرب أفريقية بين السود من الهاوسا Haussas وقبائل اليوربا Jorubas ذوى اللون الأقل سمرة والأيبو المائلين للصفرة ويرى الأيبو أن هناك نسبة عكسية بين التقدم الثقافى ومستوى الذكاء وبين ما فى الجلد من صبغة ومما يجدر ملاحظته أن للشعوب المختلفة نظرة خاصة للألوان. فعند الأشانتى يدعى اللون الأبيض أصفر والأسود أزرق. وفى هولنده يقول الهولنديون أن الإندونيسيين ذوو لون أزرق وتسمى قبائل الهاوسا البيض حمرا ويسمى الملونون ذوو الشعر الأحمر فى شرق أفريقية وغربها «الأفريقيين البيض».

وكثير من صور الوشم هى الرموز القبلية لدى كثير من قبائل الزنوج بعضها يدل على حالة الرجل وبعضها يدل على عدد من أنجبت المرأة من أولاد أو قتل الرجل أعداء، والوشم أشبه شيء بالملابس أو شارات الرتب العسكرية ويدخل فى هذا ما يناله طالب الجامعة من علامات أو ما يضع الجندى أو البحار على ذراعه من علامات تدل على رتبته. وهذه العلامات إذا دلت على طبقة أدنى فقد تصبح غير مقبولة متى مر عهد الشباب وتطلع الرجل إلى طبقة أسمى،[1] إن الأشكال الكثيرة والصور المتعددة لشوارب قوات الطيران فى أثناء الحرب أقل ضررا إلى أبعد الحدود.

ثم إن لدينا الشارات المدرسية وأربطة الرقبة وأشهر العلامات القبلية وأكثرها انتشارا الختان والحجاب.

وعند المصريين القدماء كان الختان من الحقوق التى تمنح لخواص فرعون، إذ كان شارة النخبة المختارة. ولعل إبراهيم قد أخذ هذه العادة إلى أهله عندما نفى من مصر (سفر التكوين أصحاح ١٢)؛ حيث أن الشعب المختار لم يكونوا بالنسبة إليه إلا الصفوة فقد أمر أن يختن جميع اليهود. وهكذا أصبح ماكان معتبرا دليلا على الطبقة لدى المصريين رمزا قبليا بين الإسرائيليين. وفوق ذلك فإن وشم الختان حال دون اتصال أفراد القبيلة بالقبائل الأخرى. وكان لابد أن ينسب هذا الاجراء إلى سلطة إلهية حتى يصير اجراء عاما ويدلنا على هذا أن إبراهيم استعمل الختان برهانا على عهد مع الله كما جاء فى (سفر التكوين ١٧ : ٨) "وأعطى لك ولنسبك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلاههم".

ولما اتضح بعد ثلاثين قرنا أن الختان إجراء ذو مزايا صحية قيل - فى موجة من الفكر الحر - أن هذا كان من القوانين الصحية فى صحف موسى وعم استعماله إلى ماوراء حدود المسيحية والإسلام.

---

(١) مما حققه المؤلف بين عدد كبير من الجنود أن الوشم الأول الذى يعمله الشاب فى جسمه يكون قبل بلوغه الحادية والعشرين ومعظم من وشم من الشباب ندموا على ما فعلوا بعد ذلك.

والحجاب كان سمة مهمة للطبقة والجنس والقبيلة، وقد أمر القرآن أن تستر النساء أجسامهن ولا يبدين إلا وجوههن وأيديهن، وفى المدن كانت النساء يحجبن وجوههن وأسبغ عليهن من القداسة ما دعا الى تسميتهن بالحريم، وكانت نساء الريف يتركن وجوههن سافرة إلا إذا خشين الشمس والأتربة. وعلى هذا فالحجاب كان للمدنيات فى البلاد الإسلامية ولما كان من يزور البلاد العربية يقصد المدن غالبا دون الريف فقد أذاعوا الاعتقاد أن «كل» العربيات والمسلمات محجبات، وهكذا اعتبر الأوروبيون أن ما كان من سمات النساء المدنيات وله اتصال وثيق إلى حد ما بالطبقة الراقية هو سمة شرقية عامة، ولهذا قاوم "أتاتورك" استعمال هذا الفاصل بشدة فى تركيا وبهذا قضى على ما كان يعد سرا وحرمة فى بلاده.

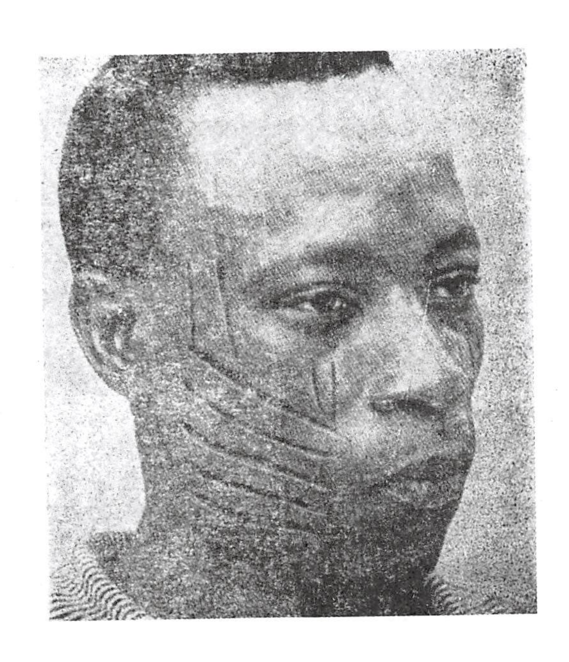
لقد بحثنا فيما سبق فاصل اللون بين فئات من بنى الإنسان وعلاقات الجماعات المتوسطة بأصولها وعلاقات الجماعات المتوسطة بعضها ببعض ورأينا أن الدافع لترقية النفس وهو شعور أساسى عند كل إنسان كان يعترضه، ولا يزال إلى حدما ظاهرة قيام الطبقات التى كان أساسها لون البشرة. ولهذا لم يكن خلاف اللون هو السبب بل كان هو الوسيلة التى دعت إليها حاجة الناس إلى إقامة الحواجز - حواجز بين الأجناس وبين البلاد وبين الشعوب وبين القبائل وبيد الأسر والحاجز بين الأبيض وغير الأبيض ما هو فى الحقيقة إلا الحاجز بين أنفسنا وغيرنا، كما قال لوقا: "اللهم أنا أشكرك أنى لست مثل باقى الناس" (لوقا ١٨ : ١١) . ويلاحظ أن هذه الكلمات قالها الفريسى .







محاولة جعل الشعر مستطيلا وإطالته





إذا كان لون البشرة غير كاف للتمييز الواضح بين القبائل فهناك وسائل أخرى للتمييز، وهذه علامات تعمل فى الوجوه فى أفريقية الغربية.

الفصل الخامس

أعظم بوتقة لصهر البشر

ليس فى العالم بوتقة أشد قوة يصهر فيها البشر من بوتقة جزائر هاواى وموانئ الشرق والمحيط الهادى إلا هذه الأرض الواقعة فى الغرب من المحيط الأطلسى؛ حيث عاشت سلالات المهاجرين من أربع قارات مختلفة وعاشت عدة قرون. وهذه البلاد التى تتوسطها جزائر البحر الكاريبى[1] تمتد تقريبا من نهر المسيسبى فى أمريكا الشمالية إلى ريو دى جانيرو فى أمريكا الجنوبية وهى تنطبق على ماسماه "راموس Ramos «نطاق الزنوج» بالأمريكتين. ولم يدخل فى هذه المنطقة المكسيك ولا جواتيمالا حيث لم يقم فيهما فى الأصل من الزنوج إلا عدد قليل. ولو أنه فى عشرات السنين الأخيرة حدث اندماج ثقافى بين هاتين المملكتين وسكان مناطق الزنوج.

ومن القارات الأربع أمريكا وآسيا وأوربا وأفريقية - التى أسهمت بالمهاجرين منها فى مزج العناصر البشرية فى الدنيا الجديدة، تقف آسيا وحدها فى موقف فريد، وهذا راجع إلى حدما إلى ما افترض من أن أول سكان أمريكا جاءوا من أسيا. وهذا الفرض هو سبب السحنة المغولية التى لبعض القبائل الهندية. وكثيرا ما يشاهد فى وجوههم ما يسمى بالطية المغولية فى الجفن، كما يشاهد فيهم الصبغة المغولية التى ترى مع ذلك لدى بعض الشعوب الأخرى، والاعتقاد بأن السكان الأصليين بالأمريكتين قدموا من آسيا مثار للجدل، لأنه من الجائز أن تتفق وجوه السكان الأصليين فى

---

(١) لفظ "كاريبى" له صور مختلفة فى اللغات الأجنبية فهو "كاريبش" Caribisch فى الألمانية، ويطلقون هم على أنفسهم "كالينا" Kalins و"كارينا" Karina

أماكن متعددة فى العالم وغيرها ممن يقيمون فى خطوط عرض مماثلة، على أن الحقيقة المؤكدة أن المهاجرين من الصين والهند وإندونيسيا قد قاموا بما أسماه "جوزيه فاسكنسيلوس" José Vasconcilos الجنس العالمى cosomic race فى هذه المنطقة من الدنيا الجديدة .

وسكان المنطقة الكاريبية وأمريكا الوسطى الأصليون يشملون بصفة أساسية المايا Mayas والأزتك Aztecs[1] ومدنية هؤلاء جديرة بما تلقى من إعجاب، ولكنها ظلت مجهولة حقبة طويلة من الزمن، وقد استعمل المايا حروف الكتابة المصورة، ونحن إلى الآن نستعملها شارات تجارية وشارات لغير ذلك من الأمور، وكانت لهم قدم راسخة فى الرياضيات وعلم الفلك، وكانت لهم مجموعة للقوانين وكان لهم تقويم خاص بهم. ومدنية الأزتك بلغت مبلغ مدنية المايا من التقدم ويمكن أن نذكر هنا جانبا أو اثنين من تلك المدنية. كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة فى عالم به ثلاث عشرة جنة وعدد منازل الجحيم فيه عشر. وكان الهم الأكبر هو "كتزالكوتل" Quetzalcoatl الذى خلق الناس ويشبه "أيسكولابيوس" Aescolapius الهندى وهو يمقت الموت وبخاصة موت القرابين البشرية رغما من أنه ضحى بنفسه ليرتفع إلى السماء المقدسة ليظهر فى صورة نجمة الصباح ونجمة المساء . وكان له تاج كتاج "أيسكولابيوس" على هيئة ثعبان له أجنحة كأجنحة "هيرمز" Hermes وكانت القرابين البشرية تمثل الذروة فى احتفالاتهم الكثيرة، ومعارض الجمال عندهم على نحو ما كان متبعا فى كثير من المدنيات الأخرى وكان لآلهة الانتحار منزلة رفيعة عندهم. والواقع أن عددا كبيرا من الناس بينهم كثير من الأطفال يقدمون كقرابين فى أيام الأعياد الكبرى فى احتفالات تختلف الشعائر فيها حتى لاتبعث على الملل وأشهر احتفال للقرابين الجمعية ما أقيم على هرم "هويتزيل بو كتل" Huitzil Pochtli وهو الموضع الذى أسست فيه كاتدرائية المكسيك قبل كشف أمريكا بوقت قصير. وفى هذه المناسبة أقيمت طقوس انتزعت فيها قلوب حوالى عشرين ألف نسمة. وكان الغرض من هذه القرابين تجديد الشباب لكل من شرب قدرا من الدم، كما

---

(١) كان الإنكا Incas يقيمون فيما يلى هؤلاء فى الظهير القارى من أمريكا الجنوبية.

استهدفت هذه القرابين إظهار الولاء للآلهة. والقرابين البشرية من التقاليد المعروفة لدى هنود أمريكا، ولو أن بعض القبائل كانت تقوم بهذه العملية على نطاق محدود.

ووأد الأطفال وقد كان يعزى فى بعض الأزمنة إلى رغبة الآباء فى حماية أولادهم من حياة الرق تحت حكم الإسبانيين كان فى الواقع معروفا قبل الفتح الإسبانى، وأشير إليه فى مخطوطات تقاويم الأزتك.

وعلى خلاف ما جاء فى الأساطير اليونانية خاصة "بتنتالس" Tantalus الذى كان جزاؤه العذاب المقيم فى جهنم لأنه تقرب للآلهة بلحم ولده المشوى، كان اعتقاد الأزتك أن التضحية بالأبناء تضمن لهم السعادة فى السماء.

ومن عاداتهم تكريم الميت بدفن أحدالأحياء معه، وكان يسقى أولا خمير الذرة أو (الشيشة) وبينما كانت الذرة شعار الحياة كانت حبوب الشيشية شعار الموت.

والكاريبيون هم إحدى قبائل الهنود الأمريكيين الذين يقيمون فى المنطقة المسماة باسمهم الآن فى أمريكا الوسطى. وكانوا من الرحالة الذين لم يؤسسوا ملكا كبيرا، ولكنهم يعتمدون فى كسب قوتهم على القرصنة وأكل لحوم البشر.

واللفظ الدال على أكل لحوم البشر فى اللغة الإنجليزية مشتق من اسم هذه القبائل Cannibalism - Cannebal . والقرابين عندهم لم تكن تقدم لآلهتهم ولكنها كانت تقدم لأنفسهم وكانوا يبحثون عن الغذاء اللازم لهم بين القبائل المعادية لهم ومن قبيلتهم نفسها وكانوا يختطفون النساء[1] "لأرواك" و"التيانو" من جزر الأنتيل Tiano ويأكلون أزواجهم وبقوا سادة على المنطقة الكاريبية حتى جاء دورهم ومحاهم الإسبانيون من الوجود. وفى جزيرة هاييتى مثلا لم يبق منهم الآن أحد على قيد الحياة.

---

(١) وبعض قبائل الأوراك أمكنهم الهرب إلى القارة، وبعض هؤلاء. وبعض الكاريبيين يعيشون إلى الآن فى جيانا فى أمريكا الجنوبية.

وما أن كشف كولومبس أمريكا حتى قضى على إمبراطورية الأزتك والمايا وقد لبث كولومبس مدة لا تقل عن عشر سنوات يغرى حكومات البرتغال وإسبانيا وإنجلترا وفرنسا بالاهتمام بما يعتزم القيام به من الحملات، وكان من المصادفات المحضة أن وهبته "إزابلا" ملكة إسبانيا المال اللازم تمهيدا لانتصارها على المغاربة، وهكذا كان أول من قدم إلى الإمبراطورية الهندية من الغرب هم الإسبانيين وأمكن بالخداع والوعود الكاذبة وغيرها مما يعبر عنه بالاستراتيجية، أمكن الإسبانيون الذين احتفل بقائدهم "هرناندوكورتس" Harnando Cortes وكأنه تجسد جديد لإلههم "كوتزالكوتل" Coatsalcoatl ومعه خمسمائة من رجاله وستة عشر جوادا أن يقضوا على الإمبراطورية الهندية. وحيث عجزت حرابهم ومدافعهم أن تمهد لهم طريق الفتح كان الانتحار على مدى كبير والمجاعة والأوبئة هى الوسائل الناجحة للقضاء على الهنود الأمريكيين. ومن نجا من الموت منهم قضى فى الرق أيامه الباقية.

وكانت الكنيسة عاجزة عن القيام فى الوقت المناسب لمنع هذه الأعمال. وكما يقول "شورز" Schurs لم يكن كتاب مثل (كوخ العم توم) يلفت نظر العالم إلى ما كان يحدث على جانب المحيط الأطلسى البعيد، ولم يكن هناك وقتئذ برق ولا صحافة تكشف الستار خارج العالم الغربى عن شرور تحدث فيه أكبر من مجرد العزل الاجتماعى، وكل من نطق بأى احتجاج لا يلتفت إليه، بل كان يمحى احتجاجه وأهم من احتج كان "لاس كاساس" الراهب الذى احتج على الرقيق من الهنود، وإن كان قد شجع الرق بين الزنوج الذين هم أقوى بنية من الأخرين، وانتهى أمره بأن أطلق على احتجاجاته وكتبه فى إسبانيا (بالأسطورة السوداء).

ولما استقر الأمر فى الدنيا الجديدة أحيط بذرارى سكانها الأصليين فى معازل فى الشمال وتعرضوا للفقر والتشتيت فى الجنوب، ولم تقم قائمة الهنود من جديد إلا بعد عدة قرون عن تأسيس بعض الممالك الحديثة مثل المكسيك وجواتيمالا.

وجاء المستكشفون مع ماجلبوه من الموت والخراب بلغاتهم وعاداتهم ودمائهم[1] وأسس كهنتهم المدارس الدينية التى أصبحت جامعات فيما بعد وضحى جنودهم بنقاء دمائهم على الرغم من معارضة الكنيسة، وأوجدوا جنسا حديثا هم «مستيزو أمريكا الجنوبية» Mestizo.

وسنصرف النظر الآن عن الدور الذى لعبته أوربا فى خلق الدنيا الجديدة، فنجعل لأفريقية المكان الأول لأنها أمدت المنطقة التى نتحدث عنها بمعظم سكانها.

وأفريقية لم تكن ممثلة على مسرح المنطقة الكاريبية تمثيلا قويا إلا بعد ٢٠ سنة من كشف أمريكا عندما جاءت أول سفينة مشحونة بالرقيق. وقد جاءوا أساسا من المنطقة التى تحيط بخليج غانة. وما يعرف الآن بالكنجو وهى وطن السودانيين والبانتو ويشمل سودان أفريقية الغربية القديم ساحل العاج وغانة وداهومى ونيجيريا[2].

ومن ساحل الذهب كان الرقيق ينقلون إلى المستعمرات البريطانية فى المنطقة الكاريبية ومن داهومى كانوا ينقلون إلى الأنتيل الفرنسية والهولندية ومن الجزء الجنوبى لأفريقية الغربية إلى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية وبخاصة كوبا وجاميكا[3].

---

(١) لقد أبان التاريخ أن هذه المستعمرات دون غيرها هى التى أقام بها المستعمرون واستعمروها استعمارا تاما هى التى بقيت بعد استقلالها موالية للبلاد التى كانت تابعة لها.

(٢) يمتاز السودانيون الأفريقيون بمتانة تكوينهم وكبر أنوفهم المفلطحة وشفاههم السميكة. وليس للباتو هذه المميزات واستطاع كل منهما أن يحتفظ بنقائه العنصرى كما أن الصحراء عزلتهم عن أفريقية الشمالية وحالت الأمراض المدارية دون انتشار البيض بينهم كما حالت ذبابة التسى تسى دون وصول أى إنسان أو أى حيوان إليهم من الشرق، ويعتبر البعض سكان أفريقية الشمالية إما حاميين (ذوى شعر مستقيم وقد يظن أنهم من الجنس القوقازى) وإما سامين (ذوى شعر مستقيم من المجموعة العربية) وللإسلام واليهودية بعض الأثر فى قبائل شمال السودان. وهذه الحقيقة جاءت فعلا ببعض آثار الإسلام إلى البرازيل فى صورة حضارة "المالى" Malse وهؤلاء الزنوج يؤمنون بالله ويمارسون عملية الختان متى بلغوا العاشرة، والزنوج "الفولا فولو" فى شمال البرازيل هم أيضا من سلالة زنوج ذوى شعر مستقيم يمكن أن يكونوا من الحاميين أو من خليط من الحاميين والسودانيين "كلزى" Kelsey.

(٣) لايزال يرى فى كوبا أثر لثقافة اليوربا Ioruba سكان غرب أفريقية وديانة الفودو Vodu فى هايتى أصلها من مستعمرات فرنسا السابقة فى غرب أفريقية واللغة الكرومانتية فى جاميكا ترجع فى أصلها إلى منطقة الكرمنتى Cromanti فى غرب أفريقية.

ومن جميع هذه المراكز كان الرقيق يباعون إلى أمريكا الشمالية[١].

وكان نقل الرقيق أول الأمر مقصورا على أصاحب إمتياز النقل وعلى أساسه منح الإسبانيون كما منح البرتغاليون احتكار تجارة الرقيق بعض أصحاب السفن. ويجب ألا نغفل فى هذا المقام أن الرقيق أنفسهم هم الذين سهلوا إلى حد كبير تجارة الرقيق وجعلوها ميسرة. فهم لم يعرفوا معنى الاتحاد وطالما استرق بعضهم البعض وباع بعضهم البعض قبل كشف أمريكا، باعوا أنفسهم للبيض وللعرب جميعا. ولولا هذا الانقسام بينهم لما وصلت تجارة الرقيق إلى ماوصلت إليه من الاتساع، وكان فى البعوض وذبابة التسى تسى مايكفى لحمايتهم، فإن أحدا من البيض لم يكن ليستطيع التغلغل فى «قبر الرجل الأبيض» فى غرب أفريقية.

هذا ومن المعروف من جهة أخرى أن الرقيق فضلوا مستقبلا مجهولا على ما هم فيه من الرق تحت سلطان ملكهم الأفريقى، ولاسيما إذا كانوا يعتقدون أن الرق سيلازمهم فى حياتهم الأخرى، ويجهلون المخبا لهم فيها.

ومهما يكن سبب تجارة الرقيق فإن ملايين من الأفريقيين كانوا ينقلون إلى الدنيا الجديدة، وهناك شاركوا السادة البيض[٢] فى مضمار السبق الجديد. وهكذا بعد ظهور "المستيزو" Mestizos جاء "الملاتو". ولنعد إلى الإسبانيين ومن وصلوا بعدهم.

لقد توغل الإسبانيون فى داخل القارة بحثا عن الذهب الذى زعموا أنهم جادون فى طلبه فى أغراض طيبة. ومن السهل أن نتصور أن الهنود أقنعوهم بأن الذهب يوجد كلما توغلوا داخل القارة، وفى الوقت نفسه كان الإنجليز والهولنديون يضطلعون

(١) يهاجر حتى الوقت الحاضر من المنطقة الكاريبية كثير من الزنوج وبخاصة من برتوريكو إلى الولايات المتحدة ويبدو أن زنوج أمريكا الأصليين لا يرتاحون إلى رحلة هؤلاء القادمين الأفريقيين.

(٢) أن أصحاب الرقيق بذلوا الجهد فى زيادة الأرقاء وكانوا يسمون عملهم «تربية الرقيق».

«بالعمل» الذى كان مجاله المناطق الساحلية وقد بدأ هؤلاء تجارة الرقيق الخاصة بهم ونقلوا الرقيق إلى المزارع المختلفة لزراعة القصب والبن والكاكاو والموز والقطن[1].

والواقع أن حق نقل الرقيق كان مقصورا على الهولنديين الذين كانوا فى جنوب الأراضى المنخفضة (بلجيكا الآن) لأن الإسبانيين رفضوا أن يشترك أعداؤهم البروتستانت فى تجارة الرقيق. وهؤلاء حاربوا الإسبانيين حتى فى المستعمرات وأمكن قائدهم "بيت هين" Piet Hein أن يستولى على أسطول الفضة الإسبانى وهو لاشك اسم مناسب جدا لأنه اتضح أن (الالدرادو) فيه من الفضة أكثر مما فيه من الذهب[2].

وفى القرن السابع عشر أسس الهولنديون مستعمراتهم فى شمال البرازيل ولما أخرجوا منها انتقلوا إلى جيانا ولا تزال جيانا الهولندية إلى الآن هى جيبا بروتستانتيا فى أمريكا الجنوبية الكاثوليكية، وقد استعرت الحرب بين الإنجليز والإسبانيين كذلك. وكانوا متحالفين مع الهولنديين فى أول الأمر، ولكن الحليفتين دبت المنافسة بينهما واستولت كل منهما على مستعمرة الأخرى. ونيويورك التى أسسها الهولنديون فى أثناء هذه الحروب استبدل الإنجليز باسمها سورينام المستعمرة الإنجليزية[3].

ولم يكن للإنجليز ولا للهولنديون نصيب كبير فى الجنس العالمى Raza Cosmica فى الدنيا الجديدة، ولكن نشاطهم كان فى تجارة الرقيق، ولم تتجاوز فتوحهما بضع جزائر ومساحة صغيرة من القارة[4] ولم يكن الفرنسيون مهتمين أول الأمر كذلك، وقد جاء بعضهم طهاة فى السفن أو طلبا للببغاوات والأصباغ أو ريش الطيور، وبعضهم جاء مدعيا أنه من الإسبانيين، لأن إسبانيا لم تكن راضية على البروتستانت فيها ولا فى المستعمرات الإسبانية ولهذا كانت المستعمرات الفرنسية محدودة المساحة

---

(١) بدأ الزنوج فى القرن التاسع عشر يجدون أعمالا لهم فى مصانع استخراج الزيت وفى المناجم.

(٢) وهذا واضح من لفظ أرجنتينيا، وريودى لابلاتا Riodela-plata وهما اسمان فيهما إشارة إلى الفضة.

(٣) لم يحصل الإنجليز على حق جلب الزنوج الأفريقيين إلى المستعمرات الإسبانية إلا فى سنة ١٧١٣ .

(٤) دمرارا وسورينام Demerara-Surinam .

كالمستعمرات البريطانية مقصورة على بضع جزر مثل هاييتى ومارتنيك وكاين فى القارة الأمريكية، وهى التى صارت فيما بعد مقرا للمحكوم عليهم.

أما البرتغاليون وقد كانوا أكثر اهتماما بالهند التى وجدوا طريقا إليها مروراً برأس الرجاء الصالح، لم يظهروا على مسرح أمريكا الجنوبية إلا بعد الإنجليز والهولنديين ولو أن عددا منهم جنحوا إلى شاطىء البرازيل سنة ١٥٠٠ وضموا إلى ملكهم ثالث أقطار الدنيا اتساعا، ولكن الحق أن البرتغاليين لم يكن لهم كبير الاهتمام بهذه المنطقة إلا بعد سنة ١٨٠٠ بوقت وجيز عندما فر الملك "جو الرابع" Goao أمام جيوش نابليون المنتصرة ونقل حاضرة الأمبراطورية البرتغالية إلى البرازيل. وكان "البولستا" Paulistas أول "المستيزو" من الهنود والبرتغال فى المنطقة المحيطة "بسان باولو" San Paulo ثم عظم شأن البرتغاليين بعد ذلك حتى صارت اللغة البرتغالية هى لغة البرازيل.

ومما يلفت النظر أن الجنس العالمى Raza cosmica الذى يقطن أمريكا الجنوبية ليس فيه ما يمثل الإيطاليين بتاتا[1] وبخاصة إذا ذكر أن "كولومبس" الذى كشف الدنيا الجديدة من "جنوة"، وأن "أمريجو فسبتشى" الذى خلع اسمه على القارة من "فلورنس" ولم يهاجر كثير من الإيطاليين إلى أمريكا الجنوبية إلا من وقت قريب، والإيطالية لغة بعض المناطق فى الأرجنتين.

أما نصيب ألمانيا فى العالم الجديد وفى العنصر الجديد فأقل من ذلك بكثير، واقتصر عمل الألمان على مد حملات الأمم الأخرى بالمال، ونظرا إلى أن ألمانيا لم تكن دولة بحرية لم يكن لهم فضل فى نشأة الدنيا الجديدة. ولقد أسسوا - مع هذا - مراكيبو فى فنزويلا وكان أحد مؤسسى سنتياجو فى شيلى المعروف باسم "بارثولوميوس فلوريس" Bartholomius Floris كان اسمه "الهر بلومنتال". وأغلب الظن أنه لم يكن ألمانيا قحا، وعلى هذا يمكن الجزم بأنه باستثناء عدد قليل من التيوتونيين البرازيليين بقيت أمريكا اللاتينية خالصة من الدم الألمانى.

---

(١) ولهذا يفضل اسم أمريكا الأيبيرية على أمريكا اللاتينية.

وكان أثر "الإسكندناويين" مقصورا على ثلاث من أصغر جزر الأنتيل، ولقد حظيت جزيرة "سانت توماس"[١] الدانمركية بمزايا الحياد فى أثناء الحروب الكثيرة التى قامت بين الدول الاستعمارية وكان بعض سكانها من الدانمركيين وسائر سكانها من الفرنسيين والهولنديين. ولم يظهر فى هذا الميدان أثر لأوربا الشرقية إلا مرة واحدة فى أثناء العهد الاستعمارى الأول، وذلك عندما وصل إلى "هاييتى" الجنود الهولنديون التابعون لنابليون. ولم يبق لهؤلاء أى أثر اليوم إلا ما قد يرى مصادفة من سكان "هايتى" من ذوى العيون الزرقاء ولا أثر لهم غير ذلك. والبوتقة لا تكون كاملة ما لم يكن بها شىء من الشرق، ففى حوالى ١٨٩٠ هاجر نحو ٦٠ ألف تركى وشامى إلى البرازيل، وسبق أن وصل بعض اليهود المستعمرين إلى أمريكا الجنوبية، وهؤلاء جاءوا من إسبانيا والبرتغال أخرجتهم محاكم التفتيش لأنهم رفضوا قبول الديانة المسيحية وكان عدد من سمح لهم بالإقامة من اليهود فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية قليلا، ومعظم هؤلاء السفارديم هاجروا إلى المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية، وجاء السفارديم أيضا إلى أمريكا الجنوبية من ألمانيا[٢].

العصر الذى أعقب إلغاء الرق:

بعد إقصاء فترة الاستعمار الأولى التى كان الرق أبرز ما اتصفت به، جاء عهد ثان اختلطت فيه الأجناس البشرية الجديدة استمر طيلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومن الغريب أنه بعد زوال السيادة الإسبانية والبرتغالية فى أمريكا

---

(١) بيعت للولايات المتحدة سنة ١٩١٧

(٢) واليهود الذين قدموا من إسبانيا كانوا يسمون بالمارانو Marrano مثل المارون Marrons أو الزنوج الهاربين. والاسم الأول يعنى خنازير، وكان يسمى به اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، ولفظ مارار Marrar يعنى سقوط أو هجر أو هرب وأغلب الظن أن لفظ مارون مشتق من مارار، والفرق بين مارانو ومارون واضح نظرا إلى أن الرقيق الذين لم يهربوا لم يسموا مارون. ولعل الإسبانيين لم يقصروا تسمية الخنازير على اليهود وحدهم بل سموا بها الهولنديين الذين نزحوا من الأراضى المنخفضة.

الجنوبية ظل الاستعمار باقيا فى المساحات الصغيرة التى كانت تحت الاحتلال البريطانى والهولندى والفرنسى وهى التى تتفق تقريبا وما يسمى «منطقة الزنوج» ولقد ألغى الرق[١]. أما الرقيق المحررون الذين حلوا محل الهنود قبلا فقد تخلوا عندئذ عن العمل فى المزارع وقام بعملهم غيرهم من العمال[٢].

(والزحف الكبير) إلى المدن الذى يفسر إلى حد ما اتساع المدن الخاصة بالزنوج جعل توفير اليد العاملة بالنسبة إلى المزارع العلمية مسألة حياة أو موت، وكانت التجربة الأولى جمع عدد من العمال الصينيين، ولكن اتضح عدم كفايتهم للزراعة كما اتضحت مهارتهم فى إدارة الأعمال أكثر من العمل فى المنطقة الحارة، ثم أخذت الحكومتان البريطانية والهولندية تشجعان الهجرة من الهند البريطانية، وتبع ذلك هجرة الإندونيسيين إلى جيانا الهولندية. ولم تحدث أية هجرة غير ذلك إلى المنطقة الكاريبية.

* * *

ويجدر بنا أن نقول كلمة عن هجرة الرقيق المحررين وأبنائهم إلى المدن. وهذه الهجرة غير «هجرة الفقراء الهاربين من الفقر» - ماركس - من مناطق الريف الأوربى حيث أن مستوى معيشة الرقيق كانت أعلى فى الريف منها فى المدن. وكان السبب الأول لهجرتهم أنهم أشبه شىء بالرقيق فى المزارع، ومن سوء الحظ أنهم لم يجدوا الوسيلة للانتقال من الزراعة إلى الصناعة فى المدن، فهم لم يهربوا من الفقر بل هاجروا إلى الفقر، إذا لم يكد يوجد لهم أى عمل فى المستعمرات. ولم تتحسن حالة الزنوج إلا عندما ذهبوا إلى المراكز الصناعية كمناطق استخراج البوكسيت والبترول.

---

(١) ألغت بريطانيا الرق سنة ١٨٣٤ والدنمارك ١٨٤٨ وهولنده سنة ١٨٦٣ والولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرتغال (البرازيل) سنة ١٨٨٨ .

(٢) ولتعويض النقص فى عدد العمال كان يقبض على الزنوج لأقل مخالفة وينقلون إلى الأعمال الزراعية. وهذا النظام كان متبعا بكثرة فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة.

الخطوة التالية فى الاندماج العنصرى:

يكفى ماسبق فى بحث العوامل التى أثرت فى بوتقة الشعوب التى حاربت وتزاوجت فى المنطقة الكاريبية وفى أمريكا الجنوبية كلها.

لقد نبت عنصر جديد فى الدنيا الجديدة وظهر نوع جديد من الإنسان العاقل وهو يمثل من الناحية الأنثروبولوجية كثيرا من الأجناس، وذلك حسب مجموعات الكروموزومات التى فى دمه - مع ملاحظة أن البيض والسود متساوون فى عددها - أما بشرته فهى إما فاتحة أو قاتمة، وأما شعره فمستقيم أو مجعد.

والبوتقة لاتزال تغلى فقبيل الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ كان سكان جينا الهولندية من البيض والملونين ولم يكن بينهم هندوستانى واحد (= هندى أسيوى) فى المجلس النيابى بسورينام. ولكن فى الفترة بين ١٩٤٥-١٩٥٦ لم يقل عدد الهندستانيين عن أحد عشر عضوا من مجموع أعضاء المجلس البالغ عددهم خمسة وخمسين عضوا[1].

وفى محاربتنا الشديدة ضد التفرقة العنصرية نود لو أن نتجنب استعمال لفظ «عنصر» عند الاشارة إلى بوتقة المنطقة الكاريبية، ونستبدل به (الجماعة العنصرية) ولكن الذين يعرفون المنطقة الكاريبية لايرضيهم هذا فهم يعلمون أنه لم تتطور هنا جماعة عنصرية فحسب بل تطور نوع جديد من السلالة الإنسانية له خواصه العنصرية. وفى شعب المنطقة الكاريبية المختلطة تزوج الزنجى الضاحك المرح بالهندية الصامتة المنطوية أو الأوربية البيضاء المستعمرة، والرجل الأبيض بما فى نفسه من جشع فى امتلاك الأرض تزوج الهندية التى تريد أن تكثر عنصرها المنقرض، واقترن

(١) لم يزد الهندوستانيون فى عددهم فحسب بل زادوا كذلك فى قوتهم الاقتصادية، وهم قوم لا حاجة لهم إلى البذخ وقد مكنهم اقتصادهم من أن يكونوا قوة عاملة رخيصة، ولعلهم الشعب الوحيد فى جنوب أمريكا الذين لم يطلق عليهم لفظ (كولى) Colie، ويخشى "فورنيفال" Furnivall أن تسود نظرية «بقاء الأرخص» فى مجال المنافسة الاقتصادية.

الكريولى المرح بالأسيوية العاطفية، وهكذا أصبح اللون الأبيض أميل إلى السمرة واللون الأسمر أميل إلى البياض[1] وعلى هذا لم تنتج بيضة كولومبوس طائرا بل خرج منها عنصر جديد.

ولو لم يكن فى هذه البوتقة عنصر اللون لكان الموقف غاية فى البساطة، وعندما تتحد الأجناس فى اللون يسهل اختلاطهم ويحدث الاندماج بينهم دون أى نظر إلى اختلاف العنصر، قال "كبلنيج "من "النورمان" و"الأنجلوساكسون" صب الإنجليز عنصرا واحد فى ثلاثة قرون. ومثل هذا يحدث ببطء عند اختلاف اللون كما فى حالة اندماج الآريين والدرافيد. وفى عنصر أمريكا الجنوبية الحديث.

وهذا يثير سؤالين لامفر من الاجابة عنهما.

بوتقة صهر أو خلط.

(١) هل الأجناس المختلفة أو الجماعات العنصرية قد امتزجت فعلا بعضها ببعض أم هى لم تزد على الاختلاط؟

(٢) وهل مدنية "المستيزو" و"الملاتو" فى الكاريبى صهر أو خلط.

لو أن العناصر قد صهرت معا فأخرجت عنصرا جديدا لجاز لنا القول بأن شعبا جديدا قد أبدع، أما إذا كانت قد اختلطت فإنه من الممكن أن نفرق بين مكوناتها.

والسؤال الأول سبق توجيهه من قبل. ومن رأى "همفرى" Humphrey "عن ستودارد" Stodard ان بوتقة الصهر لا تعطينا فى ألف عام الصهر الذى يأمله المتحمسون. ستعطينا فى مدى أجيال كثيرة متعاقبة عددا من الأجيال المتباينة، ونظرا إلى أن الخلف يرجعون إلى أسلافهم فى خصائصهم سيزيد التنوع فى الأسلاف من شكهم فى وراثاتهم. سوف لا يرثون خلقا كاملا متناسقا ثابتا لأن مثل هذا الخلق لايوجد.

---

(١) هذه من مميزات بعض الشعوب ولكن إلى حد بسيط جدا؛ فمثلا يلتزم الهنود الصمت؛ لأنهم يخشون أن تسمع الأرواح الشريرة كلامهم فتعرف مقر فرائسها القادمة.

سيرثون خليطا من الخصائص المتنوعة أسهمت فيها شعوب متنوعة كذلك، وسيكون لهم من وراء ذلك هذا الميراث بعض الخصائص التى تنطبق كل الانطباق على خصائص السلف، ويحرمون حرمانا تاما من بعض الخصائص الأخرى، وهذا الذى سيحرمون منه يستره سلوك الجماعة الذى يلهم أعدادا كبيرة من الناس آمالهم ومطامعهم.

ولنحاول الإجابة عن السؤال الثانى، ذلك لأنه من السهل أن نضع أيدينا على العناصر الأصلية لمدنية "المستيزو" و"المولاتو"، ومع هذا فالإنسان لا يستطيع التنبؤ بأى العادات سيكون لها الغلبة فى أثناء عملية «الصهر».

وفى المنطقة الكاريبية يمكن تمييز المدنيات المختلفة بوضوح، وفى كثير من الأحوال كان امتزاجها قليلا.

ومهما كان الامتزاج عظيما ففى وسعنا أن نميز الديانات المختلفة والطقوس الدينية المتنوعة. وعلى الجملة ليس الخلاف كبيرا بين مختلف المدنيات فليس هناك إلا حالة ثقافية تقترب كل مدنية فيها من الأخرى أو تطغى عليها.

وإذا أردنا أن نفتش عن مدنية عامة فى المنطقة الكاريبية لا نجد إلا روحها وعاداتها، وإلى هذه الروح يرجع شعور الحرية وانعدام كل القيود. إن وجود القبعة اليعقوبية على كثير من الرؤوس فى أمريكا الجنوبية تدل على أن هذه الشعوب هم أصدقاء جديدون للحرية والمساواة. وعلى النقيض من الحرية الروحية التى يستشعر بها البوذى فى الآخرة؛ فإن سكان أمريكا الجنوبية حريصون على حريتهم فى هذه الحياة. إنه حر ويشعر بالحرية ولا يخشى أحداً. لا تقيده العادات ولا آداب اللياقة ونظرته إلى الحياة (استمتع بيومك) Carpedien وليس معنى هذا أنه ميال للكسل، ولكن فلسفته فى الحياة تقتضى أن يسرع ولكن برفق Festina lente، وهذه الفلسفة تسود فى الأجواء الحارة على خلاف السرعة التى من خصائص سكان البلاد الباردة.

ونعود إلى السؤال الأول الذى يبحث إن كانت الأجناس المختلفة والجماعات العنصرية المختلفة قد امتزجت حتى صارت عنصرا واحدا مخالفا لها، أم هل اختلطت كما اختلطت المدنيات ليس غير، وهل من الصواب أن نتحدث عن بوتقة صهر امتزجت فيها العناصر المختلفة الأصلية، أم عن مخلوط يمكن تمييز كل العناصر التى يتركب منها، وقانون "مندل" يؤيد تأييدا كاملا الاحتمال الثانى. فإذا قيل إنه «عنصر مختلط» فهذا تعبير صادق لأن الجينات التى تحمل جميع الخصائص الموروثة لا يمكن أن تمتزج كل منها بالأخرى. و"ڤان لير" Van Lier يستخدم اصطلاح التمييز Segmentaris ليعبر به عن رأيه؛ بأنه ليس هناك فقط جماعات عنصرية بل أفراد أيضا، وهؤلاء جميعا لا يمكن أن يكون امتصاصهم كاملا. ونظرية "همفرى" التى أشرنا إليها فيما سلف تستبعد «بدعة بوتقة الصهر» كلية. والملونون أنفسهم يعتبرون هذه الظاهرة خلطا لا اندماجا : «إن بطن المرأة الملونة لا يلد إلا ما يشبه الثوب المتعدد الألوان».

إن خير الأسماء الذى يطلق على اختلاط الأجناس هو «فسيفساء الجينات» Mosaic of genes وفى كل فرد يختلف موضوع الجينات. والمستقبل وحده هو الذى يحدد المدى الذى تتم فيه الوحدة المثالية بعد التنوع، ومما كتبه "فيرا كلسى" Vera Kelsy «أنه كان لابد من مرور عدة قرون حتى يمكن القول «أنا برازيلى من البرازيل».

يتضح مما تقدم أنه ليس من الصواب أن يقال أن هناك عملية صهر وامتصاص للأجناس. إن الجنس العالمى Raza Cosmica بما فى هذا التعبير من قوة قد أخلى مكانه لشعار جديد هو «أمريكا اللاتينية إلى الأبد».

الفصل السادس

خاتمة

كل الناس إخوة (غاندى).

الإنسان ذئب الإنسان (بلوتس).

كان الهدف الذى توخيته فى هذا الكتاب أن أبين الدور الذى يلعبه اللون فى حياة الإنسان. إن كل زيادة غير عادية فى المادة الملونة للبشرة هى دليل سوء الحظ؛ لأنها إذا خرجت عن الضبط انعكست آثارها على البيض والسود وتتجلى هذه الآثار الخارجية فى يقظة الشعوب الملونة. واختلاط الأنساب هو أمر طيب ما لم يحدث ما يدعو للإثارة والغضب، واختلاط الأجناس إذا ماسار سيره الطبيعى فقد يكون مدعاة لحسن التفاهم والاحترام المتبادل. والاستثناء الوحيد ذو الأهمية الكبرى سنعالجة فيما يلى:

إن كثيرا من الناس على اتفاق على أن لون البشرة قد اعتبر ظلما أساسا لما نسميه المسألة العنصرية. والواقع أن المسألة العنصرية كما نفهمها عادة ماهى إلا خرافة - خرافة خلقت لتكون ستارا لمشكلة مخالفة كل المخالفة عنها - هذه المشكلة هى غريزة المنافسة بين الناس، وفى هذه المنافسة ليس للون البشرة إلا ما يشبه اللون الذى يختاره أى ناد له أو «رباط الرقبة» الجامعى الذى يميز مدرسة عن أخرى، والتداول الذى يحدث فى الصفوة الذى نسميه «تطورا» أو «ثورة» إذا حدث فى مجتمع من جنس واحد يعد «مشكلة عنصرية» إذا ماكان بين عنصرين.

والخلاصة أن المشكلة العنصرية ما هى إلا صورة جديدة لصراع الطبقات الذى تمثل كل طبقة فيه مجموعة أثنوجرافية معينة بين الناس .

ومفهوم «الطبقة» يمكن أن يكون لها معنيان: الأول: تكوين الطبقات حسب الحالة الاجتماعية أى أن هناك تراتبا فى التبعية الاجتماعية. هذه التبعية تكون إما للكنيسة بما لها من سلطان دينى أو ثقافى، أو تكون لأحد السادة الذين ورثوا السلطان الحربى والاقتصادى.

والمعنى الثانى: أن (الطبقة لاتتضمن إلا جماعة متباينة من الناحية الاقتصادية وهذا يصبغ المسألة العنصرية بصبغتين طبقيتين أهمهما الصبغة الاقتصادية).

ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن لون البشرة وراثى لأن الانتقال إلى وضع آخر أو طبقة أخرى لا يمكن حدوثه تدريجيًا أو مستترا، والطبقات تتكون على أساس نصوص دينية أو غير دينية تدعو المعذبين فى الأرض إلى أن يتحملوا قدرهم بالرضى والصبر أو تعدهم بالخلاص من طبقاتهم الدنيا بعد الممات. ولا يمكن أن يقضى على المشكلة العنصرية إلا إذا بطل تميز الجماعات العنصرية بلون بشرتها بمعنى أن اللون الأبيض يكون بمثابة البنيقة البيضاء واللون الأسود يكون بمثابة الدثار الأسود والاستثناءات لهذه القواعد العامة غير كافية لستر حقيقة الأمور.

ونحن نعرف من الناحية الطبيعية أن الطيور على أشكالها تقع، والطيور التى يختلف ريشها لا يألف بعضها بعضا. ولنذكر أن بعض البجع لديه حاسة اللون ويبدو أن لدى الإنسان ما يشبه هذه الظاهرة التى توجد لدى الحيوان، وهذه الظاهرة تصبح «مشكلة» كلما سادت إحدى الجماعات سائر الجماعات. وعلى هذا فالقول المأثور بأن «جميع الناس ولدوا وهم سواسية فى الحقوق» لا وزن له إذا عجزوا عن أن يسيروا فى مضمار الحياة متمتعين بحقوق متساوية، وهذا بطبيعة الحال لا يتعلق بتكوين الطبقات الذى يعتمد على الطموح الشخصى، ولكنه يتعلق بتكوين الطبقات الذى يعتمد على المبادىء المصطنعة.

وكثيراً ما قيل إن الجماعة المتفوقة اليوم تحفر بأيديها قبورها بتعضيد فكرة المساواة بين كل الناس، ومع هذا فالخطر الذى يأتى من كثرة تعداد الفريق الآخر ينمحى إذا زال من نفوسهم الإحساس بالتوازن الأيكولوجى الذى يوجد بين جميع الملونين فى موفقهم العدائى من البيض، والامتصاص الحقيقى للجماعات المختلفة

غير ممكن فى وقت قصير. وربما يحدث فى مدى عدة أجيال بين الجماعات الكبيرة بين الناس. والذى يحدث عادة هو امتصاص جزئى ومحاولة التعجل فيه ربما أدت إلى عكس المراد.

هذا وبعض التعبيرات مثل «التسامح العنصرى» و «الأخوة» قد يشم منها رائحة التفرقة وقد تؤدى إلى علاقة الأخ الأكبر Big Brother أو تتضمن أن العناصر متحدة لغرض مشترك ليس صالحا بطبيعته لتثبيت العلاقة الطيبة بين الناس. ومن جهة أخرى هناك خطر يهدد العلاقات الإنسانية إذا أسيء فهم التكوين البيولوجى الطبيعى لبعض الجماعات المنفصلة فاعتبر أنه تمييز عنصرى.

نخرج من هذا بأن أفضل الحلول هو الصداقة على أساس من المساواة، ولكن مع حرية الاختيار، ومع احترام الشخصية الإنسانية وحمايتها.

وصفوة القول:

١ - المسألة العنصرية كما تفهم عادة هى مسألة الطبقة أو الحالة الاجتماعية لكنها تستتر وراء ألوان الناس المختلفة.

٢ - التكوين الأثنوجرافى أو البيولوجى للجماعات يختلف اختلافا أساسيا عن مفهوم التمييز العنصرى. وعلى هذا فالتجمع العنصرى لا ينطبق على التمييز العنصرى. ومفهوم كل من الأمرين مختلف اختلافا جوهريا عن الآخر. ومن المغالطة أن يعتبر الأول مبررا للثانى سواء أطلق هذا التعبير إطلاقا عاما أم كان التعميم أساسه نسبة الخطأ إلى شعب أو جنس لتصرف صدر من شخص بعينه أو من جملة أشخاص.

٣ - التفرقة العنصرية لا يمكن أن توجد إلا إذا وجد التمييز الطبقى.

٤ - إذا فقدت إحدى الجماعات السلطة انحلت الجماعة المعارضة إذا كان اتحادها مبنيا على المعارضة دون غيرها.

٥ - كل محاولة بناء حسن العلاقات على أساس غير الصداقة القائمة على المساواة لاتنتهى إلا بالفشل.

٦ - إن وظيفة البشرة فى تحديد الجماعات الإنسانية التى ينقسم إليها البشر لم تكن أصلا بأى حال من الأحوال عاملا من عوامل العلاقات السيئة بين الناس.

٧ - إن يقظة الشعوب الملونة التى تتجلى فى مقاومة الاستعمار هى ثورة عالمية أبقى على الزمن من الثورات السابقة. إنها ثورة الطبقة الخامسة، بينما كانت الثورة الفرنسية هى ثورة الطبقة الثالثة والثورة الروسية هى ثورة الطبقة الرابعة. إن اللون فى هذه الثورة القائمة الأن هو الرداء أو الرمز وإنه لوهم أن يظن أحد أن من الممكن وقف هذه الثورة ، إن الممكن هو توجيهها إلى أفضل المسالك بتعاون الطرفين المشتركين.

وكل محاولة للرجوع إلى أصل ظاهرة المنافسة الإنسانية التى تدعوها المسألة العنصرية تقتضى الرجوع مدى بعيدا فى التاريخ. إن المنافسة هى غريزة فطر عليها الإنسان منذ كان فى جنة عدن عندما اتهم أدم حواء بأنها ضعيفة مخطئة «هى أعطتنى من الشجرة فأكلت[1] هى الكلمات التى عرفنا منها بعد أكل التفاحة من شجرة الحكمة الفرق بين الخبيث والطيب ومن حسن الحظ أنهما لم يأكلا إلا تفاحة واحدة، ومن جهة أخرى لو لم تحدث الخطيئة لعاش فى الجنة جنس واحد[2].

---

(١) سفر التكوين ٣ : ١٢

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم لا يجعل المرأة مسئولة وحدها عن هذه الخطيئة؛ يدلنا على هذا قول الله تعالى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ «سورة طه. ١٢٠»

ومرة أخرى نجد أن إبليس توجه إلى آدم وحواء بالإغراء فى قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ رقم الأية ٢٠ .

ونزول آدم وحواء إلى الأرض كان بعد أن تقبل الله منهما التوبة ﴿ وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ سورة طه رقم الأية ١٢٢ .

ولذلك فحياتنا على الأرض ليست عقابا على خطيئة وإنما هى قيام لخلافة الله فى الأرض. (المراجع)

وغريزة الفاصل العريقة Barrier instinct ضامنة لانعدام الإنسان الواحد المتكرر فإن الرجل «المتفرد» الذى نسميه بالشخصية سيحاول أن يتفوق بطريقة أو بأخرى. وهذا الإلحاح الدائم الذى يدفع كل إنسان إلى محاولة التفوق على الغير هو الباعث الأساسى لرفعة الإنسانية، وهذه الغريزة يمكن أن تصاحب أو تؤدى إذا لزم الأمر إلى تكوين الجماعات الإنسانية وهو ما يدعو إلى تدعيم المكانة التى يبلغها فى معركة الحياة.... وإلى السيادة.

وهذه المكانة لن تكون مدعمة باستمرار لأن الجماعة الخاضعة ستستمر فى معركة الحياة كذلك. فإذا كسرت هذه الحلقة المفرغة فإن الإنسان الصاعد ذا الضمير الحى Ascendens et conicians يستحق أن يسمى الإنسان العاقل. إنه هو الذى يتعلم ضبط غرائزه البدائية ويفهم أن مكانة الإنسان ورفعته تقاس بفضائله الذاتية، فإذا بطل اعتبار اللون حقا مكتسبا بالوراثة، فلربما ينتهى العهد الذى يساء فيه فهم وظيفة الجلد، ويساء فيه استخدامها فى تقسيم النوع البشرى إلى جماعات.

المراجع

REFERENCES

Ackerman Nathan W. and Jahoda Marie, Anti-Semi ism and Emotional Disorder : A Psychoanalytic Interpretation, Harper and Brothers, 1950.

Alexander W. W. Racial Segregations in the American Protestant Church. Friendship Press, 1946.

Allport Gordon W. Prejudice : A Problem in psychological and Social Causation. Journal of Social Issues, Supplement Series, November 1950.

- Catharsis and the Reduction of Prejudice, Journal of Social Issues, December 1945.

- The Nature of Prejudice, Anchor Books, New York, 1958.

Baber Ray E.A. Study of 325 Mixed Marriages. American Sociological Review; Octoober 1937.

Balandier G. : See Lind.

Bavink J.H.Het rassenuraagstuk. Gereformeerd Weekblad. Dec. 1955.

Berkhof A. Angst uoor Azië. Nederlands Boekhuis, Tilburg.

Berr Henri : See pittard.

Bittrich F. O. Orient ohne Schleier. Safari-Verlag, Berlin, 1950.

Blake Robert and Dennis Wayne. The Development of Stereotypes Concerning the Negro. Journal of Abnormal and Social Psychology. October, 1943.

Bogardus Emory S. Immigration and Race Attitudes. D.C. Heath and Co, 1928.

Bond H.M. The Education of the Negro in the American Social Order. Prentice-Hall Inc., 1934.

Bosshard W. Conflict en Intrigue in the nabije Oosten. Meulenhif Oral., Amsterdam ; 1955.

Bowles Chester. Africa's Challenge to America. The Regents of the Univ. of Calif., 1954.

Boyd william C. Genetics and the Races of Man. Little, Brown and Company, 1950.

Brigham R. I. The Price of Segregation. Survey Gra phic, May, 1946.

Brookes E. H. SouthAfrica in a Changing World. Oxford University press, 1953.

Brown Sterling A. Negro Character as Seen by White Authors. Journal of Negro Education, January 1933.

-The Negro in American Fiction. Associates in Negro Folk Educaton, 1937.

Bryce ; See Rose Arnold.

Bunch Ralph. The Negro in the political Life of the United States. Journal of Negro Education, July 1941.

Burns Alan. In Defence of Colonies. George Allan and Unwin Ltd publ., London, 1957.

- Colour prejudice. Gorge Allan and Unwin Ltd. Publ., London, 1948.

- History of the British West Indies. George Allan and Unwin Ltd. Publ., London, 1954.

Buss Cl. A. Sout - Kust Asia and the world To-day- Van Nostrand, New York, 1958.

Butcher M. J. The Negro in American Culture. A Mentor Book, The American Library, 1956.

Campell A, Les deux Bisages ed l'Afrique, Libraire Hachette, Paris, 1955.

Centrel Hadley. The Psychology of Social Movements. John Wiley and Sons, 1941.

Carothers J. C. The African Mind in Health and Disease. WHo, 1953.

Carter G. M. The Politics of Inequality. South Africa since 1948. Thames and Hudson, London, 1958.

Chaia Jean. Echec d'nne tentatiue de colonisation de la Guyane au 18e Siécle. Biologie médicale, Specia April, 1958.

Charbonneau-Bauchar R. Blancs et Noirs au Rendez Vous. La Colombe, Paris, 1956.

Coll C. Van. Gegeuns ouer Land en Volk uan Suriname R. K. Missie Paramaribo 1903 en De Surinamer 1894-1896.

Collier J. Indians of the Americas, The New American Library, New York, 1948.

Congar Yves M. J. The Catholic Church and the Race Questions. UNESCO series on The Race Question 1953.

Daniel V. E. Ritual and Stratification in Chicago Negro Churche. American Sociological Review. June 1942.

Davie T. B. Education and Race Relations in South Africa, S.A. Institute of Race Relations Johannesburg.

Davis Allison W. Caste Evonomy and Violince. American Journal of Sociology, July 1945.

Dean V. M. The Nature of the Non-Western World. Mentor Books, The New American Library, 1957.

Dean J. P. and Rose A. A. Manual of Intergroup Relations. The University of Chicago Press, Chicago, 1955.

Delafosse Maurice (I). Civilisations Négro-Africaines. Paris 1925.

Denis de Rougemont. Het Westers Auontuur uan de Mens. Uitg. Mij Holland, Amsterdam, 1958.

Devlin P. et al. Report of the Nyasaland Commission of Inquiry. London, 1959.

Dodson D. W. Religious Prejudice in Colleges. American Mercury, July 1946.

Drexler J. P. Front dar Gekleurde Rassen. W. de Haan, Zeist, 1957.

Dunn L.C. and Dobzhansky. Heredity, Race and Society. The new American Library, New York, 1946.

Fraenkel E. and Bracher K. D. Staat und politik. Fiscber Bucherei, Frankfurt, 1957.

Frankenberg F. von. Meschenrassen und Menschentum. Safari Verlag, Berlin ' 1956.

Frazier E. F. The Negro in the American Social Order. ????mal of Negro Education, July 1935.

- The Negro in the United States. The Macmillan Company, 1949.

- Negro Youth at the Crossways. American Council on Education, 1940.

- Ethnic Family Patterns : The Negro Family in the United States. American Journal of Sociology, May 1948.

- Sociological Theory and Race Relations, American Sociological Review, June 1945.

Furnas J. C. Good bye to Uncle Tom. Secker and Warburg publ, London. 1956.

Garvey Marcus: See Stonequist.

Ghurye D. Caste and Class in India. Asia Publ. House, Bombay ; 1957.

Ginsberg Morris. Sociology. Oxford Univ. Press., 1955.

Glick C. E. Collecive Behavior in Race Relations. American Sociological Review, June 1948.

Glock C. E. See Lind A. W.

Gobineau Arthur de (trans. by Collins). The Inequality of Human Races. G. P. Putnam and Sons, 1915.

Goldenweiser Alexander. Anthropology.

Appleton Century Crofts, Inc., 1937.

Gorer Geoffrey. The Americans. German Edit, Rowohlts Deutsche Enzyklopodie, 1956.

Gosnell Harold F. Negro Politicians. University of Chicago Press, 1935.

Gregory J. W. : See Burns.

Guérin Daniel. Un Future Pour les Antilles. In les Temps modernes. Jan. Febr.. 1956.

Gunther J. Inside Africa. Hamilton Ltd., London ; 1955.

- Inside Asia. Harper and Brothers, New York and London, 1938.

- Inside Latin America. Harper and Brothers, Now York and London, 1904.

- Inside Rusia. Hamish Hamilton ; London, 1958.

Halligan Alice L. A. Community's Total War Against Pregudice. Journal of Educational Sociology; February 1943.

Hardy G. Vue générale de L'Histoire d'Afrique. Armand Collin Publ., Paris, 1948.

Herring. H. A. History of Latin America from the deginning to the Present. Jonathan Cape, London ; 1954.

Hoernle R. Ref. Digest of South African affairs. Pretoria, 3/8/1956.

Horowitz Eugene L. Development of Attitude Toward Negroes. Archives of psychology, No. 194, 1936.

Horton C. P. Changes of Skin Color. etc. Am. J. Dermatol., 1959.

Hughes Langston and Milton Meltzer. A pictorial History of the Negro in America. Crowm Publ. Inc., New York. 1956.

Hurwitz J. Marginal Men of India. Indonesia 1954:129.

Italiaander R. Der ruhelose kontinent Econ. Verlag. Dusseldorf. 1958.

Jones C. R. Ethnic Family Patterns : The Mexican Family in the United States. American Journal of Sociology, May 1948.

Keesings Historisch Archief. Amsterdam.

Keet B. B. The ethics of apartheid. South Afr. Inst. of Race Relations, Johannesburg, 1957.

Kelsey V. Seuen Keys to Brazil. Funk and Wagnalls Company. New York 1940.

Keppel-Jones A. Südafrika. Safari Verlag, Berlin, 1952.

Khneberg Otto. Social Psychology. Henry Holt Publ. and Co., New York, 1955.

Kornauser Arthur. Public Opinion and Social Class. American Journal of Sociology, Jannuary 1950.

Kronenbrger Louis. Company Manners. A. Mentro Book, New American Library, 1955.

Kruyer G. J. Suriname en zijn Buurlanden. J. A. Boom and Zn. Publ. Meppel, 1951.

Lamson H. D. The Eurasian in Shanghai. American Jouranl of Sociology, 1936.

Landis J. T. and Landis M. G. Building a Successful Mariage. Prentice Hall Inc., 1948.

Landman Michaeler. Philosophische Anthropologie. Publ Walter de Gruter and Co., Berlin 1955.

Landry S. O. The Cult of Equality. The Pelican Publishing Company, 1945.

Lecomte Du Nouy. Human Destony. Publ. Signet Books. The New American Library, 1949.

Leeuw van der G. Wegen en Grensen ; de uerhouding uen religie en kunst, Paris H. J. Publ, Amsterdam. 1955.

Lehmann Arno. Die Kunst der Jungen Kirchen. Evangelische Verlaganstate Berlin 1955.

Lichtveld L.Suriname. Wetenschappelike Uitgeverij N.V. Amsterdam, 1957.

Lier Rudolf van. Samenleuing in een Grensgebied. Publ Mart. Nijhoff Den Haag, 1959.

Lind A.W. Race Relations in World perspective. University of Hawaii press, Honolulu, Hawaii. 1955.

Little Kenneth : See UNESCO.

Locher Th. J.G., de vries E. en van Asbeck F.M. Baron. Achtergronden van de Huidige Wereldcrisis. Univ. Pers, Leiden. 1957.

Locke Alain. Wisdom de Profundis : The Literature of the Negro 1949. Phylon, First Quarter, 1950.

Loon H. Van. The Story of America. Dell Publishing Company Inc., New York.

Maclver R. M. (ed.) Discrimination and National Welfare. Instiute for Religious and Social Studies, 1949.

Maracis B. J. Die Kleur Krisis en die Weste. Die goeie Hoop Uitgevers Beperk, Johannesburg, 1952.

Marquard L. The peoples and policies of South Africa. The Cameld Press Ltd, London, 1952.

Matett R. R. : See Burns.

Martin L. and S. The Standarrd Guide to Mexico and The Carivvean. Funk & Wagnalls. New York, 1956-1957.

Mays Benjamin E. Segregation in Higher Education. Phylon 1949.

Mead M. the concepts of culture and psych. approach. Psychiatry 1947: 10-7.

Mende T. Entre la peur et L'espoir. Publ. Seuil, Paris, 1958.

Michener J. A. The Voice of Asia. Random House Inc., U.S.A., 1951.

Msimangu : See Roskam.

Muhammad Zafrulla Khan. The contrubution of Islam to the solution of the World's Problem today. The Ahmadiya Movement in Islam, Publ. Washington, 1958.

Myers Henry J. and Yochelson Leon. Color Denial in the negro psychiatry, Feb. 1948.

Myrdal G. An American Dilemma. Harper Bros Lte., London, 1944.

Neame C. E. Wit Afrika, Het Probleem van een Wit Volk in een Zwart Werelddeel. Wiek Op, Prugge.

Nevins A. and Commoger H. S. Amerika N. V. Wereldbibliotheek, Amsterdam.

Nkrumah Kwame. Towards Colonial Freedom. Guinea Press, Accra, 1947.

Packard Vance. The Status Seekers. Longmans, Green & Co, Lomdon, 1960.

Panikkar K. M. L'Asie et la Domination occidentale. Ed. Du Seuil, Paris 1953.

Park Robert E. Migration and the Marginal Man. American Journal of Sociology, 1925.

The Mentality of Racial Hybrids. American Hournal of Sociology, 1930-1936.

Parkes James W. The Jewish Problem in the Modern World. Thornton Butterworth Ltd. 1939.

Passarge Siegfried. Geographische Bolkerkunde. Safari-Verlag, Berlin, 1951.

Paton A. The Land and the People of South Africa See Gunther.

Piddington R. Introducton to Social Anthropology. Publ. Oliver and Boyd, London. 1957.

Pierson D. : See Lind A. W.

Pittard E. Les Races et l'Histoire. Editions Albin Michel, Paris, 1924.

Powdermaker Hortense. The Channeling of Negro Aggression by the Cultural Process. American Journal of Sociology, May 1943.

Putman Weale P. L. The Conflict of Color. Ref. Steddard. q. v.

Radhakrishman. East and West : Some Reflections. George Allen and Unwin, 1954.

Ramos Arthur. Die Negerkulturen in dem Neuen Welt. Transl. Rich Katz, Eugen Rentsch Publ. Erlenbock, Zurich.

Reddick L.D. The Education of Negroes in States Where Separate school are not Legal. Journal of Negro Education, Vol, 16, 1947.

Reuter E. B. Race Mixture. Mc. Graw-Hill Book Compauy, 1931.

Richmond Anth. H. The Color Problems. Penguin and Pelican Books, 1955.

Romem J. and Wretheim W. F. A. World on the Nove-Djambatan Publ. Amsteram, 1956.

Rose Arnold. The Negro in America. The Beacon Press, Boston, 1948.

Roosevelt Theodore. Amerikanisme. Vincent Loosjes Publ., Haarlem, 1920.

Rubbens R. Le colour bar au congo Belge. Publ. "Zaire" Brussels, May 1949.

Sack Von : See Van Lier.

Schotz. Het rassencraagstuk in Zuid Africa Uitgereik deur Kantoor van die Unie van Suid-Afrika. Staatserukkerij Pretoria. 1950.

Schulte Nordholt J. W. Het Volk dat in duisternis Wandelt. Van Lochem Slaterus Pnbl., Arnhem, 1956.

Schurz W. L. This New World the Givilization of Latin America G. Allen & Unwin Lte., London, 1956.

Shapiro H. L. Migration and Enviromment. Oxford Univ. Press, 1939.

Sherif M. and Sherif C. W. An Outline of Social Psychology, Harper Bros, New York, 1956.

Simon Caroline K. Causes and Cure of Discrimination. New York Times Magazine, May 29-1949.

Simons R. D. G. Ph. Ueber Tatowierungen und Zirkum-zision; Dermatologica Karger Base,m 1948.

Nieuwe Rotterddamse Courant 1956.

Huidskleur en menselijke verhoudingen. Elsvier, Amsterdam,1958.

Enkele principes van de primitive geneeskunde in de tropen en het zgn. bijgeloofin de lepra in de Atlantische negerzones Vox Guianae. Publ Nyhoff, The Hague and Djambatan, Amsterdam, 1959.

Ueber Aberglanben und Lepra i.d. atlant. Negerzonen. Der Hautarzt. Munich, 1960.

Simpson George Eaton and J. Milton Yinger. Racial and Cultural Minorities : an Analysis of Prejudice and Discrimination. Harper Bros. Publ., New York.

Sithhole Ndabaningi. African Nationalism. Oxford Univ. Press 1960.

Spaak Paul Henri Current Topics. British Atlantic Committee. London 1958.

Spero S.D. And Harris A. L. The Black Worker. Columbia University Press, 1931.

Stoddard Lothropo. The Rising Thde of Color Against White World Supremacy. Charles Scribner and Sons New York, 1920.

Sweetman J. W. Islam and Christian theology 1 + 11, Lutterworth Press, London. 1947.

Stonequist Everett V. The Marginal Man : A Study in Personality and Culture Cenflict. The American Journal of Sociology, July, 1935.

Strauss H. J. Die Beskawings en politieke status vandie Naturel in Suid Afrika. Suid Afrikaanse Calvinistische Untgewers Maatschappij Beperk, Bloemfontein, 1950.

Suasso de Lima de Prado P. J. Luipaardmannen en slangendansers. Scheltens and Giltay, Publ. Amsterdam, 1957.

Suriname (Het Ambacht in Suriname) Gouv. Resolutie Gouvern., Suriname ; 1912.

Sweetman J. W. Islam and Christian Theology. Lutterworth Press, London, 1956.

Tocqueville A. de Die Demokratie in Amerika. Fischer Bucherei Frankfurt M., Hamburg, 1956.

Toit J. D. du Die Afrikaanse Rassebleid en die Skrif. Pro Rege Pers Beperk, Potchef-festroom 1954.

Tomlinson Report ; South African Affairs Digest of Appril 1956.

Touré Sekou. La Guiné et J'emancipation africaine. Presse africaine Paris, 1959.

Toynbee Arnold J. A study of history Vol 1 + 8, Oxford Univ. Press. 1939-1954.

Christianity among the religions of the world Oxford Univ, Press 1950.

UNESCO. The Race Concept. Results of an Inquiry. UNESCO. Publ., Parsi, 1952.

Vaillant G. C. The Aztecs of Maxico. Richard Clay & Company Ltd., Bungay. Suffolk, 1950.

Vanmaele G. De integratie van de politieke instelingen in de franse Overzes gebied-en, Kongo overzee Uitg. Sikkel, Antwerpen, 57.

Van't Veer Paul. Vriend en Vijand in de Kolonie. Arviederspers., Amsterdam, 1956.

Visser't Hooft W. A. The Ecumenical Movement and The Racial Problem UNESCO se ies on The Race Quetion etc., 1954.

Vrijman L. Slacenhalers en Slavenhandel. P. N. van Kampen & Zn, Amsterdam, 1943.

Wagley Ch. and Harris M. Minorities in the new world Columbia Univ. Press, Now York, 1958.

Wallbank T. W. A Short History of India and Pakistan. A Mentor Book, 1958.

Warner W. L. and Davis Allison W. A. Comparative Study of American Caste in Thompson's (ed.) Race Relations and the Race Problem. Duke University Press, 1939.

Wells A. W. Southern Africa To-day and yestrday. J. M. Dent & Sons Publ., London.

Williams Eric. The Negro in the Caribbean. Publ. London, 1942/45.

Wit, De Hendrik. Suriname en de Nederlandse Antillen. W. van Hoeve the Hague 1951.

Wright R. Zwarte Kracht. Sijthoff Publ., Leiden, 1956. The Colour Bar. Publ. Van Hoeve The Hagve, 1957.

Zeligs R. and Hendrickons G. Racial Attitudes of 200 Sixth-Grade Children. Socology and Social Research ; Sept-Oct., 1933.

Handbook of Race Relations in South Africa. S. A. Institute of Race Relation, Johannesburg.

Ibero-Amerika. Ein Hankbuch. Uebersee-Verlag, Hamburg 1954.

Our Rights as Human Beings. Publ. The United Nations, 1955.

الإشـــــراف اللغــوى : حسام عبد العزيز
الإشــــراف الفــنــى : حســن كــامـل
التصميم الأساسى للغلاف : أســامة الـعـبـد